

كتاب اليوم

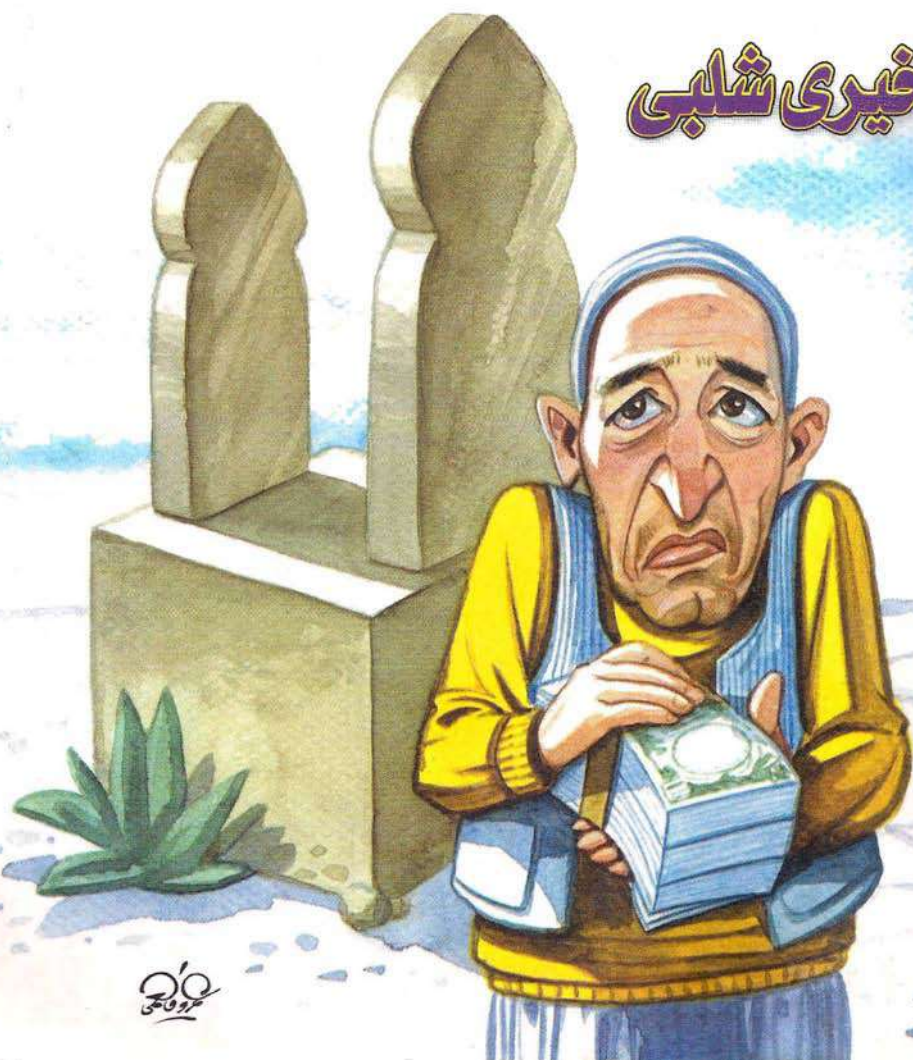
<http://arabicivilization2.blogspot.com>

Amly

ما ليس يضمينه أحد

مجموعة قصصية

خيرى شلبى

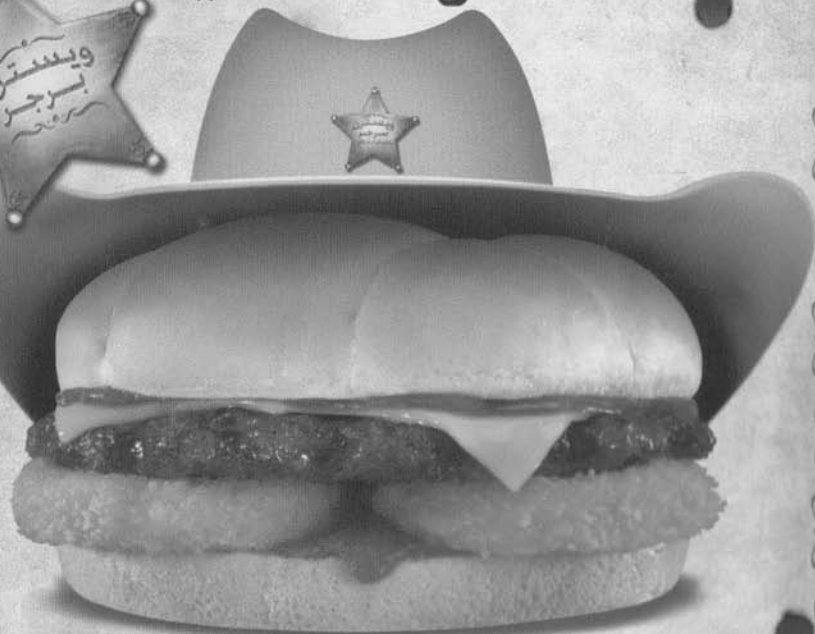


جديد

مطلوب

لطفة اللذيذ

ويسنترن
برجر



ويسنترن برجر

صوص الباربيكيو اللذيذ والجبن الفاخر على برجر هارديز الشهى (لحم بقرى صافى 100%)
وحلقات البصل المقرمشة داخل خبز هارديز الطازج

رقم واحد لطفة التوصيل

19066

هارديز

برجر مشوي على اللب



رئيس مجلس الإدارة

د. محمد عهدي فضلي

رئيس التحرير

نوال مصطفى

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم

العدد رقم ٥٢٦

يونيو ٢٠٠٩

يصدر أول كل شهر

عن

دار أخبار اليوم

٦ شارع الصحافة

القاهرة

ت: ٢٥٩٤٨٢٢٣

تليفاكس: ٢٥٧٨٤٤٤٤

الغلاف:

عمرو فهمي

الإخراج الفني:

عبد القادر محمد علي

تخفيض ١٠%

من قيمة الاشتراك

لطلبة المدارس

والجامعات المصرية

أسعار البيع

خارج مصر

سوريا ١٥٠ ل.س - لبنان ٥٠٠٠ ل.ل - الأردن ٢
دينار الكويت ١ دينار - السعودية ١٢ ريال -
البحرين ١ دينار - قطر ١٢ ريال - الإمارات ١٢
درهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينار -
المغرب ٣٥ درهم - اليمن ٥٠ ريال فلسطين ٢
دولار - لندن ٢ ج ك - أمريكا ٥ دولار - أستراليا ٥
دولار استرالي - سويسرا ٥ فرنك سويسري.

العنوان على الإنترنت

www.akhbarelyom.org/ketab

البريد الإلكتروني

ketabelyom@akhbarelyom.org

ما ليس يضمنه أحد !

خیری شلبي

قبل أن تقرأ ..

فى هذا العدد من سلسلة «كتاب اليوم» واستمراراً لمسيرة ناجحة أعتز بها نقدم هذه المجموعة القصصية الرائعة للكاتب الكبير خيرى شلبى، والتي تأتى فى تتابع مشرف لإصدارات «كتاب اليوم» لكبار كتاب مصر ومفكريها.. هذا التتابع الذى أرى فيه سيمفونية رائعة من رحيق الفكر والثقافة العربية الخالصة والتي أتمنى أن تستمر بهذا الشكل والمضمون القيم، الباعث لروح الثقافة لكل القراء فى الوطن العربى الكبير.

خيرى شلبى أديب من أصحاب القامات العالية فى عالم الإبداع، فهو كاتب غاص فى أعماق الإنسان وحلق فى سماء الأدب بكل كيانه وعقله وذاته الطامحة العاشقة، ويكفى رصيده فى خزانة الجوائز الأدبية الكبيرة للتعبير عن مكانته، فقد حصل على جائزة جائزة الدولة التشجيعية فى الآداب عام ١٩٨١ وعلى

وسام العلوم والفضول من الطبقة الأولى فى نفس العام، وروايته "وكالة عطية" حازت جائزة أفضل رواية عربية عام ١٩٩٣ وميدالية نجيب محفوظ من الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ٢٠٠٣ وأفضل كتاب عربى من معرض القاهرة الدولى للكتاب عن رواية «صهاريج اللؤلؤ» عام ٢٠٠٢ وقد رشحته مؤسسة "إمباسادورز" الكندية للحصول على جائزة نوبل للآداب وغيرها من الجوائز التى لا يتسع المجال لذكرها الآن.

من أشهر رواياته: السنيورة، الأويش، الشطار، الود، العراوى، فرعان من الصبار، وكالة عطية، موال البيات والنوم، ثلاثية الأمالى (أولنا ولد- وثانينا الكومى- وثالثنا الورق)، بغلة العرش، لحس العتب، منامات عم أحمد السماك، صالح هيصة، موت عباءة، بطن البقرة، صهاريج اللؤلؤ، زهرة الخشخاش، نسف الأدمغة، صحراء الممالك (٢٠٠٨) وغير ذلك.

ومن مجموعاته القصصية: صاحب السعادة اللص، المنحنى الخطر، سارق الفرح، أسباب للكى بالنار، الدساس، أشياء تخصصنا، وغيرها.

ومن مسرحياته: صياد اللولى، غنائية سوناتا الأول، المخريشين، وتمت ترجمة معظم أعماله إلى الروسية والصينية والإنجليزية والفرنسية والأوردية والعبرية والإيطالية، خصوصاً رواياته: الأويش، الود، فرعان من الصبار، بطن البقرة، وكالة عطية، صالح هيصة. وفى هذه المجموعة القصصية «ما ليس يضمنه أحد»

يجسد خيرى شلبى لحظة نعيشها جميعاً بمشاعر
مختلفة.. لحظة التقاء الحياة بالموت والمفارقات العجيبة
التي ينتجها الواقع بين هذين النقيضين أو وجهى
العملة.. الحياة والموت.. فقصّة «ما ليس ضمنه أحد»
والتي حملت المجموعة اسمها تكشف عن الفارق الشاسع
بين تدبير الانسان وحكمة القدر.
والآن أترككم مع سطور خيرى شلبى فى رائعته
الجديدة التي يشرفنا أن يصدر فى هذا العدد من «كتاب
اليوم».

نوال مصطفى

يونيو ٢٠٠٩

أُمسيت متعاطفا معه، استلبنى
كثيرا ما كنت من فرط غيظى
أتخيل نفسى فى مكانه حتى أصبحت
مهموما بالتفكير فى المقاومة والبحث
فى كيفية الدفاع عن كرامتى
إذا لا قدر الله ابتليت بمثل
هذه البلية.

نفايات خائفة!

عصر كل يوم، فى غررتنا المفضلة فوق علوية زقاق المدق المتفرع من شارع الصنادقية المتفرع بدوره من خان الخليلي، وطوال ثلاثين عاما تقريبا، لابد أن نلتقى أنا وصديق عمرى مختار حمودة الذى شاء الحظ الحسن أن يكون زميلى فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية وأن يعمل كلانا فى البحث الميدانى الراصد لما يجرى فى المجتمع المصرى من تحولات انفتاحية كاسحة لكل أعراف وتقاليد وأخلاقيات المجتمع المصرى.. كذلك شاء الحظ الحسن أن تكون هذه الفرزة بالذات دون كل الفرز - لشهرتها وسحر موقعها فوق أكتاف حى تجارى زاخر- أحد أهم الميادين الذى يفرز فيها المجتمع المصرى مكامن أسرارهِ وظواهرهِ الطبقيّة ومدى انتعاش حركته الاقتصادية ولقد فهمنا من قعدات روادها ما لم نفهمه من تجولنا الطويل فى أعماق الحوارى والأحياء العشوائية المغبونة برغم أننى ومختار يسكن كل واحد منا فى عشوائية متاخمة لحى كبير مهيب حيث نخادع زملاءنا وأصدقاءنا وسائقى التاكسى حين أزعِم أننى أسكن فى مصر الجديدة ويزعم مختار أنه يسكن فى حى الدقى.

وكان يجب فى حقيقة الأمر. عندما يصطدم كلانا بسائق التاكسى أثناء المرواح آخر الليل أن يقول مختار بصراحة إنه يسكن فى عزبة الصفيح وأقول إننى أسكن فى عزبة العرب، ليكون السائق على بينة من أنه سيخوض مجاهل وعرة. كنا فى مقام العينات التى

تقوم عليها أبحاثنا، ولكن استغراقنا بولع واستمتاع فى شخصية الباحث أتاح لنا فرصة أن نضع أنفسنا فى مكانة فوقية للنظر جيدا من خارج الذات، إلا أننا ما لبثنا حتى استمرأنا هذه الوضعية مخدرين بزهو الانتماء . ولو كذبا . للنخبة، فأدمننا لقب الباحث أو الأخصائى الاجتماعى بنفس القدر الذى أدمننا به الجلوس فوق هذه العلوية الساحرة حيث القاهرة كلها من تحتنا طوابق من سحب هاتمة لعلها زفرات كائنات خرافية تحت هديم كوني طال به الأزل ولم ينفذ غباره بعد بل هو فى ازدياد .. فيما مضى كانت العصارى والأمسيات تمضى فوق العلوية فى غاية من الأنس والمودة بين القعدات المتجاورة، تتناقل البهجة والنكتة والغمرة والقفشة والتعميرة الجيدة والأريحية الحشاشية المعطاة الدافئة .. إلى أن بدأت عايذة زوج صديقى مختار حمودة تحضر قعدتنا كل يوم، ثم تتحول إلى كابوس مرعب يقريف المزاج ويحرق الدم، لا أذكر متى بدأ حضورها على وجه التحديد إذ إنه من فرط طفيانه يبدو قديما جدا .. الكلام فى الشغل وفى الشئون العامة تراجع تماما، لم يعد ثمة من حديث بيننا إلا الحرم المصون الست عايذة وما جرى منها بالأمس، لكنهما عدوان لدودان ينفذان حكما من محكمة كونية عليا بأن يناما معا على سرير واحد ويأكلا من طبق واحد وأن يتكفل هو بجميع النفقات حتى وإن نام على الأرض أو طفع الدم أو طفش من البيت! ..

كثيرا ما كنت أتشكك فى هول ما يحكيه من وقائع جرت بينهما وتطورت إلى حد التشابك بالأيدى وتبادل أحط الألفاظ وأقبح العبارات أمام العيال والجيران. كنت أعرف أن مختار حمودة موهوب فى الحكى ويستطيع أن يؤثر على أبسط حكاية سيما أنه لا يتحاور إلا بالحكايا وعمره ما عرف المباشرة فى لغة الحوار، إن قلت له: ما الذى أخرك عن الموعد؟ يحكى لك حكاية موجزة أى نعم وليس لها أية علاقة بالمواصلات أو بأى مواعيد لكنها لا تخلو من دلالة فإن كنت لماحا استطعت أن تلمح على أطرافها سببا يمكن أن يكون قد عطله عن المجئ فى موعده، وحتى إن قلت له: صباح

الخير يحكى حكاية عن واحد من أجمل الأصباحة فى حياته فإن تأملتها اكتشفت بوضوح أنه يقصد العكس تماما، وأن جميع الأصباحة التى عاشها كانت والعياذ بالله.. ولكن ما من حكاية حكاها إلا وتدخل دماغى مشحونة فى معظم الأحيان بالحكمة وبالموعظة وبنبيرة تشى بأنه موجوع موجوع موجوع من استنزاف عمره وصحته فى خناقات زوجية قائمة على الدوام لا ينجو هو من جحيمها إلا بأن يهج بعيدا عن البيت طوال النهار ونصف الليل، كنت أتصور أنه يبالغ بل تصورت أنه من فرط ولعه بالحكى يتخذ من سيرة زوجه ملحمة يمارس فيها لذة الحكى، غير أن الحرارة التى كان يحكى بها كانت تتضح صدقا يتصبب على جبين كلماته العرقانة من لهب حارق فى مشاعره.. عندئذ يتبين لى العكس تماما، يتضح أن موهبته فى الحكى نتجت فى الأصل عن تراكم الوجع، إنه إنسان سجين أنجب من عايدة أربعة عيال جاءوا كلهم على سبيل الخطأ من مواقف جنسية لم يكن لها أى معنى أو طعم أو ضرورة، يصعب عليه أن يطلق فيحرم العيال من أهمهم، يخشى أن يرحل بهدومه مكتفيا بإرسال المرتب لها كل شهر فيفسد العيال ويصيروا يتامى فى حياته، ولقد جرب جميع الأساليب لردعها والسيطرة عليها وإخضاعها، من خصام إلى ضرب مبرح إلى شتائم قاسية، فما كان منها إلا أن يادلته الضرب بالضرب وهى قوية البنيان بورسعيدية بمبوطية مكشوفة الوجه مسترجلة عند اللزوم، أما الخصام فليس يعنى شيئا عندها، إنها مستعدة لأن تحتل هجرانه ثلاثمائة عام متصلة، فإن أراد هو الجنس فليطلبه سعيًا إليها بتقديم العرايين والقرايين من هدايا ومن تلطف لعدة أيام تنتهى ذات لحظة من ليلة يكون فيها قد عمى من التحشيش وشرب البيرة وأكل المنزول حيث تتغافل هى عنه فتسمح له باغتصابها لمدة خمس دقائق على الأكثر ينهد بعدها شاعرا بالذلة والندم، وفى الصباح ينسى تماما أنه فعل، لكنه يظل طوال النهار مكتئبا منحرف المزاج عصبيا يلوش الزملاء ويخبط فيهم دون أن يدري ثم يرتد فيعتذر برقة ونعومة إلى حد الإشراف على البكاء.. ليس أمامه من

منفذ للتنفيس عما هو فيه من كرب مقيم سوى الفضفضة لصديق حميم، غير أنها فضفضة تأخذ شكل المشاهد التفصيلية المثيرة الدهشة، أضبطه مستمتعا متلذذا فيما يقول "بنت الـ (.....) كسلت تقللى بيضتين! كسلت حتى تعمل كباية شاي يا دوبك هو طبق فيه حنة الجبنة القريش وعودين جرجير ورغيف وأنا لسه دافع لها خمسين جنيه مكافأة العشر تيام اللي قبضناهم أنا ماطقتش! بضهر إيدى رحت ضارب الطبق نظر فى وشها وخذ عندك: يا سافلة يا تسول مستخسرة فى الخدمة؟ زراير ما تخطيهاش! هدوم ما تكويهاش! ووش زى فردة الجزمة بوزه يقطع الخميرة من البيت إتفوه! وتنى خارج ورازع الباب ورايا! اتهزت الجدران واتخضوا الجيران!"، وينفج حنكه الشهوانى الواسع عن ضحكة هستيرية لكنها تقطر طيبة وإنسانية مهيضتين.

أمسيت متعاطفا معه، استلبنى كثيرا ما كنت من فرط غيظى اتخيل نفسى فى مكانه حتى أصبحت مهموما بالتفكير فى المقاومة والبحث فى كيفية الدفاع عن كرامتى إذا لا قدر الله ابتليت بمثل هذه البلية، من فرط تعاطفى معه صرت أنسى أن هدومى دائما نظيفة مكوية فى مقابل هدومه المترهلة، أنسى أن بيتى يطبخ كل يوم من أجل أن أجد لقمة طازجة وأننى عزمته على الغداء كثيرا فى مقابل أنه يعزمنى فى مطاعم الحسين ووسط المدينة.. صرت أنسى هذه الفروق التى تؤكد اختلاف حالى عن حاله ويترسخ فى باطنى شعور عدائى قوى ضد الزوجات والحياة الزوجية بوجه عام. يعنى أكاد أكون قد تبنييت موقف صديقى بأشد منه حرارة وانفعالا.

إلا أننى ما لبثت حتى تفتحت عيناى فجأة على واقع صادم شديد الإيلام لقد بدأت ألاحظ أن زوجى التى ظللت طوال عمري أحلف بحياتها أصبحت تكاد تكون نسخة طبق الأصل من عابدة لا أذكر متى بدأت تتجراً على وتبادلنى الشخبط بصوت أعلى بل توجه لى نظرات اشمئزاز تشيلنى وتحطنى كأننى فى نظرها حشرة خبيثة.. يا للمصيبة! هل علمت عابدة بما نحكيه عنها فالتفت من

ورائى وتعرفت على زوجى ونفثت فيها سمومها أوغرت صدرها بل دربتها على السلوك الذى تفعله مع زوجها فى الفراش بأن تكون جثة باردة بليدة لا تتزين بل لا تخلع هدوم المطبخ، انخفض مستوى الطعام، ومستوى النظافة تراكمت ثيابى على الفسالة، كثرت المناقشات التى ما تكاد تبدأ حتى تصير خناقة يفلت فيها اللسان.. فى إحدى هذه الخناقات رفعت يدى لأضربها فكانت أسرع منى فى ضرب ذراعى بعنف ترنحت منه. فزعت دخت تهاويت غبت عن الوعى. بعد فترة قيل إنها عشرة أيام تماثلت للشفاء ناجيا من ذبحة صدرية بمعجزة إلهية، طوال فترة النقاهة كان السؤال يلح على: كيف حلت شخصية عابدة فى شخصية زوجى فى حين أن الواحدة منهما لا تعرف الأخرى على الإطلاق ولم ترها أو تسمع حتى اسمها؟.. رحت أغوص فى مشاعر ضبابية، لكننى سرعان ما صفوت بمجرد أن وضعت زوجى رأسها فوق صدرى وراحت تحملى فى عيني بنظرة عتاب عميقة بعيدة الغور، رأيتنى أسألها: ما الذى أصابنا؟ قالت والدموع تفرط نفسها على خديها: اسأل نفسك ماذا جرى لك أنت؟ قلت: ماذا جرى؟.. انبرت تحكى بحرارة نفس الحرارة التى يحكى بها مختار: كيف أننى جرحتها باللفظ وبالفعل ليلة كذا، كيف صرت غليظا معها بدون مبرر، وأين كنت أخبئ هذا القاموس البذئ الذى كنت أغمرها بمفرداته كيف تناولت عليها بنظرات شك سوقية بل كيف طاوعنى ضميرى ورميت عليها يمين الطلاق عديدا من المرات دون أن أدري؟.. هذا إذن هو السبب فى حجب نفسها عنى فى الفراش طوال الأشهر الأخيرة؟ يا ربى! من فرط الشعور بالخجل والحزى غمرت رأسها ويديها بالقبلات، فى لحظة ضوء خاطفة أردت أن أعذر لها بأن الذى فعل بها ذلك لم يكن أنا، إنما هو شخص آخر احتل عواطفى ثلاثين عاما فنقل إلى مأساته لقد كنت مغفلا حقاً! كنت صفيحة قمامة يدلق فيها صديقى نفايته الذاتية التى اتضح أنها أشد فتكا من النفايات الذرية فأجىء أنا من غفلتى لأدلفها فوق حريمى إلا أننى أحجمت واستحسنتم فكرة إعادة عقد القرآن كأننى أوقع عقداً جديداً مع الحياة.

أعصابى تعبت يا أستاذ ويجب
أن تعرف أننى بطلة فى قدرتى
على تحمل الوحدة والفراغ
والكآبة!.. عندى أموال تكفينى حتى
الموت لكنها عاجزة عن تطبيب
نفسى!.. ولكن قل لى: "ما مدى
معرفتك بالباشمهندس؟"

نزف كبرياء مهيز

أشعر بأنى مهمل فى حق أستاذى المهندس الدكتور سعيد البدرى، لابد إذا من انتهاز هذه الفرصة للاتصال به وتهنئته على فوزه بجائزة الدولة التقديرية، ولكن، أليس من الأفضل أن تكون برقية؟ على أى عنوان ياترى؟ إننى مع الأسف لست أعرف عنوان بيته ولا مكتبه الاستشارى الجديد.. فلأكلمه فى منزله، إن رقم الهاتف المدون فى مفكرتى قديم جداً، ومنذ عشر سنوات على الأقل لم أطلبه فيه، هل أنا كلمته فى منزله من قبل؟ نعم؟ أظن! لا! لا أظن! لا أذكر!.. دائماً أبدا كنت أكلمه فى مكتبه فى وزارة الإسكان لكنه منذ أحيل على المعاش وغادر مكتبه فى الوزارة منذ حوالى عشر سنوات لا أذكر أنى هاتفته فى أى مكان، إنما كنت ألتقيه صدفة فى بعض المؤتمرات الدولية أو الندوات المحلية، وأقرأ مقالاته فى جريدة الأهرام ومجلة الأهرام الاقتصادى وكثيراً ما علقت على بعضها فى رسائل الأهرام.

الرقم يبدو أنه من سنترال المعادى، أضفت إليه الرقم المضاف من السنترال كما نهتتى سكرتيرته الآلية مما طمأننى أن الرقم لم يتغير.. جرس، صوت ارتقاع السماعة: ألو، الصوت نسائى رزين ملئ بأنوثة عتيقة شائخة لكنها ذات نكهة كلاسيكية قلت فى وجل:

."مساء الخير يا افندم!"

صوت اعتاد السيادة والسيطرة:

."أهلاً بحضرتك!"

.. "أقدر أكرم سعيد بك البدرى من فضلك؟"

بركان تفجر:

.. "يا أفندى يا قليل الذوق قلت لكم ميت مرة زفت الطين ده ما

عاش موجود فى الرقم ده! إنتوا ما بتفهموش؟! بتحبوا التهزى؟!"

.. "العفو يا أفندم هو ده مش بيته؟"

.. "يا متخلف لم يعد البيت بيته من خمستاشر سنة!"

تراك.. أغلقت السكة فى وجهى

الصدمة دوختنى.. ما كان يدور بخلى مطلقاً أن المهندس

الدكتور سعيد البدرى الاستشارى العالمى وأستاذ أجيال من خريجي

كلية الهندسة بجامعة القاهرة يمكن أن يكون قد ارتبط ذات يوم فى

حياته بمثل هذا المستوى من سلاطة اللسان والخشونة، وهو الرجل

الذى يذوب رقة من فرط الرجولة الآسرة الواثقة، أول شئ يتعلمه

منه تلاميذه هو الأدب الجم، عفة اللسان، طهارة اليد، عزة

الكبرياء، بعد هذه الأرضية الراسخة من الاحترام فى أرقى صوره

وأجلى معانيه يأتى ما يتلقونه عنه من علم اتسم دائماً بالفزارة

والثراء والبذل، ليس يبخل على طلابه بل يفيض عليهم ويشرح

ويعيد الشرح ويضرب الأمثال لشرح الشرح، يأنف من بيع

المذكرات، ويكره الأغبياء، ويشغل هو ومكتبه بالمجان إذا طلبوه

للمشاركة فى مشروع قومى، من ير تواضعه الشديد لا يكاد يصدق

أن هذه الشخصية البسيطة المتسامحة الودودة هى صاحبة ذلك

الاسم العالمى الذى يرن فى المحافل الدولية كالموسيقى الطروب،

إننى أشك بل إننى على يقين قاطع أن هذه السيدة التى ردت على

الآن لا يمكن أن تكون زوجها أو بنته أو أخته أو أى أحد يمت له

بصلة قربى بل هى لا يمكن أن تكون حتى خادمة، لأننى وغيرى من

تلاميذه لا نتصور خادمة تعمل فى بيته إلا وتكون على قدر من

الذوق والأدب، على الأقل لن تتلفظ بمثل هذه المفردات السوقية

ولن تغلق السكة فى وجه المتكلم.

فجأة رن جرس هاتفى، نفضى من فرط الخضة غير المتوقعة،

وأنا متوحد مع نفسى، اغتظت كأن أحداً رمانى غدرا بسهم فى

مقتل، تلكأت في رفع السماعة، نظرت في الشاشة التي تعكس رقم من يطلبني، عجيبة فعلاً عجيبة، إن الرقم الذي يطلبني الآن هو نفس الرقم الذي طلبته أنا منذ قليل، رقم هاتف منزل المهندس الدكتور سعيد البدرى، حيث توجد هذه السيدة التي عاملتني بغلظة، ترى هل تود أن تعتذر، ربما، هل سأقبل اعتذارها؟ أظن أنه من الواجب أن أعطيها فرصة ثم أرى، يجب أن أشعرها بأنني وإن أهنت منها بغير ذنب فإنه يبقى بيننا ما يُوجب الود والاحترام، يوجد بيننا أستاذي الذي أدين له بفضل عظيم المهندس الدكتور سعيد البدرى، وأياً كان رأيها فيه الآن فلا هي ولا نساء الأرض كلهن بقادرات على زعزعة رأيي فيه، واحترام مصر كلها وتقديرها له، الرنين يتواصل بالحاح، رفعت السماعة: آلو، قلتها خافطة وبتحفظ.

.. "آسفة يا أستاذ! أنا.. لا تؤاخذني.. أنا أصلى سئمت طهقت من العيشة وحدي في فيلا من دورين تحوطها جنينة موحشة في النهار فما بالك بالليل؟.. عيالي الأربعة مهاجرون: اثنان منهم ولدتهما في نيويورك حينما كان أبوهما يدرس لبحث الدكتوراه، عدت بهما إلى مصر فعلمتهما مصر في كلية العلوم، وسافرا إلى نيويورك في بعثة دراسية فلم يرجعا! إنهما بجنسية أمريكية أصلاً! البناتان متزوجتان، واحدة في هولندا والثانية في كندا، عشتا هناك ولكل منهما بيت ملك!.. فين وفين حتى يتذكرني واحد منهم بتليفون أو جواب!.. ياما أشطرهم في دعوتي للإقامة عندهم هناك أو هناك، لكن هل أترك بيتا أنا سيدته وعلى مقربة منه مدفن أمي وأبي وإخوتي وكل سلسال عائلتي لأعيش في بيت أصير فيه محل عطف كالمسولة في بلاد لست أحبها، ولا أتمنى أن أدفن فيها؟.. أعصابي تعبت يا أستاذ ويجب أن تعرف أنني بطلة في قدرتي على تحمل الوحدة والفراغ والكآبة!.. عندي أموال تكفيني حتى الموت لكنها عاجزة عن تطبيب نفسي!.. ولكن قل لي: "ما مدى معرفتك بالباشمهندس؟"

.. "أنا تلميذه درست على يديه في كلية الهندسة"

.. "هل تراه كثيراً؟ ما آخر مرة رأيته فيها؟"
.. "بصراحة منذ.. منذ.. مدة طويلة من يوم ما أحيل على
المعاش!"

.. "أو هووه!.. وما الذى ذكرك به الآن؟"
.. "جائزة الدولة التقديرية! أردت أن أهنته!"
.. "ألم تسمع بأننا انفصلنا منذ خمسة عشر عاماً"
.. "لا والمصحف! حضرتك صدمتني الآن بهذا الخبر!"

.. "فى يوم من الأيام كانت شغلتى طوال النهار والليل أن أرد على
ناس يطلبونه فى التليفون!.. يا ناس هو لم يعد هنا! انفصلنا! لست
أعرف عنوانه! لا أعلم عنه شيئاً!.. ولكن لا فائدة! يطلبونه
مجدداً!.. أشتمهم! ألعن آباء الذين خلفوهم! أقفل السكة فى
وجوهم! يطلبونه أيضاً!.. أحياناً.. صدقتى.. أغلق السكة فيرن
الجرس فى الحال بواحد جديد يطلبه!.. الجميع مصررون على أنه
مقيم معى فى البيت وهو.. صدقتى.. مقيم ليل نهار فى كل ركن فيه
لا يغيب سوى جسده بل إن جسده.. صدقتى.. كثيراً ما يخيلنى فى
الصالة أو فى البلكونة أو فى حجرة مكتبه، أكاد أراه رؤية العين
خارجاً من الحمام إلى مكتبه فأجرى لأمسك به فلا أجد شيئاً بين
يدى فأكاد أجنّ يا أستاذ!.. تصور أنت عذابى يا أستاذ.. ما بى
أننى أراه حاضراً بلحمه وشحمه أحياناً دون أن أستطيع الإمساك
به! وما بى رنين الهاتف المتواصل يسأل عنه دون اعتراف بأنه غادر
هذا المكان ربما إلى الأبد! فهل تستكثر على انفجارى فيمن يكيدون
لى بطلبه المستمر فى التليفون!.. لست أذكر عدد الذين انفجرت
فيهم وتعلمت قلة الأدب والسفالة على أقفيتهم.. المهم أنهم خفوا
شيئاً فشيئاً إلى أن صدّقوا بأن هذا البيت لم يعد بيته وهذا الرقم
لم يعد يخصه فكفوا عن طلبه عندى!.. سنوات طويلة مضت حتى
نسيت أنا نفسى أننى كنت ذات يوم زوجة للباشمهندس سعيد
البدري، وأننى أنجبت منه أربعة أولاد بأربع أسر كبيرة فى هولندا
وكندا ونيويورك حتى شبهه لم يعد يظهر.. ماصدقت أن طاب
جرحى إلا وأفاجأ بحضرة جناب حضرتك تطلبه عندى!.. لقد

فزعت: ما هذا المتخلف؟! أمعقول أن هناك من لا يزال يعتقد أن هذا البيت بيته حتى لو كان شخصا قادما من المريخ؟ انفجرت فيك غصبا عني، ولكن بعد أن وضعت السماعة غاضبة فوجئت بشبحه يطب في الحال كدوامة الريح.. رأيت خارجا من حجرة مكتبه ممسكا بالمسطرة الحديدية متجها بها نحوي والشرر يتطاير من عينيه، وأنا أترجع بظهري فزعة ونادمة على عنادي لأنني أدت أسطوانة الموسيقى الكلاسيكية الصاخبة، ورفعت صوتها على الآخر، لكي أرغمه على الخروج من عزلته ولو لبرهة، أتفاهم معه فيها على كثير من المشاكل المؤجلة بيننا من سنين طويلة ومشكلتي أنني دائما أنسى أنه حمول حمول، ولكن أه من ثورته: اتق شر الحليم إذا غضب!.. أعترف بأنني ياما أوصلته إلى حالات غضب كهذه كاد يفقد فيها صوابه.. وفي واحدة منها وقع يمين الطلاق ثلاث مرات، في كل مرة ثلاثة أيمانات، يعني ليس من سبيل للعودة.. هو قيمة عظيمة لكن حملة كان ثقيلًا على كتفي!.. قل لي من فضلك: ألم تسمع أي خبر عن حياته الخاصة؟.. على كل حال أنا لما شفته حاضراً في بيتي فرحت رغم الخوف!.. ندمت على أنني شخطت فيك!.. أشعر الآن بأن الآية انعكست: أتمنى أن تعود الاتصالات من جديد أضعاف ما كانت فهي تؤنس وحدتي!! مستعدة أن أعمل سكرتيرة للرد على طالبيه! سوف أرد عليهم بكل رقة واحترام! سأقول لهم إنه في الشغل! كلموه في مكتبه إنه مسافر! أي رد والسلام!.. و.."

سكت الصوت تماما، خيل إلى أنني سمعت صوت وقوع السماعة مع صوت نهضة بكاء سرعان ما انكتمت أخذت أهتف: ألو! ألو! ألو!.. وأخيرا وضعت السماعة فلاحظت أن يدي ترتعش. كنت على وشك الانفجار في البكاء، شعرت بضرورة الاتصال بالمهندس البدرى بأي شكل، ما لبثت حتى تراجع عن فكرة الاتصال إلى أن تبرأ مشاعري من أوجاع ما ألقى في بحيرتها من صديد جرح أطال العناد كتمانها، فلم تعد النفس الأمانة بالسوء - وقد تسممت - بقادرة على نكرانه.

يفتح عينيه في الصباح فيرى
 الشمس التي يعشقها مشرقة في
 عينيها، فيضئ وجهه، تفرج القوقعة
 عن الطفل النبيل المطبوع على المودة،
 يحكى لها عن أمه عن إخوته عن
 طفولته في مخيمات حرس الحدود
 ولكن لا يجئ بسيرة أبيه
 إلا نادراً..

مفام الضوء

وهى فى طريقها إلى بورسعيد لاحظت أنها قد أصبحت مألوفة لجميع ركاب خط القاهرة بورسعيد سواء فى التاكسى أو أتوبيسات السوبر جيت. لاحظت كذلك أنهم يلاحظون أنها لم تعد وحدها بل برفقتها صبية هى ابنتها الوحيدة التى كانوا يرونها منذ سبع سنوات طفلة تنام على حجرها أو تتعلق بثوبها؛ الآن هى صورة طبق الأصل من المرحوم أبيها ولهذا فهى تحبها بعمق رغم أنها لم تأخذ منها سوى عينيها اللوزيتين اللامبايتين كعيني أمها؛ كلاهما هى وابنتها روز. تتجنبان نظرات الإشفاق التى تلامسها من بعض من يألفونهما، إذ أنهما تلبسان الأسود فى أسود طوال سبع سنوات مضت.

كانت تجلس بجوار شباك السوبر جيت فوق الكرسى المترفع الملاصق للباب ، وروز لصقها على الكرسى الملاصق الأرض من تحتها تسابق ذاكرتها فى الجرى فى نفس الاتجاه المعاكس لسير الأتوبيس والزمن؛ ترى نفسها الآن فى اللوحة التى رسمها لها زوجها الفنان الراحل. ما أروعها؛ جسدها يقشعر، تتوهم كأن عفريتاً من الجن رسمها وكان قادراً على استنطاق وجهها، لقد رسم روحها فى كل تقاطيعها إذ هى جالسة فى حالة انكسار نفسى؛ لقد رسم تعاستها مع أنها كانت لا تزال

عروساً فى شهرها الأول؛ كان يدرك أعماقها، كان يتأسى من أجلها، خطوطه وألوانه وظلال ولمسات فرشاته العبقريّة تؤكد عمق حبه لها وإشفاقه عليها، تؤكد نورانيته وفيض إنسانيته؛ هذه اللوحة ليست مجرد رسم لها يتطابق مع حالها إنما هى قبل ذلك رسالة فى منتهى البلاغة موجهة إليها تعلن عليها حبا ممزوجاً بهمارة عجزت عن إسعادها على النحو الذى تستحقه؛ الفنان الحىّ الخجول الصموت تنطق لوحته بكل ألوان العبارات، وعبارات الألوان شارحة عمق ما يشمر به الفنان من ذنب تجاهها، فى حين أنها هى كانت مستعدة للنفاء فى سبيل إسعاد سعادة حقيقية ولو للحظة واحدة .. إنها تشعر دائماً أنه برغم بساطته وفقره وركود أيامه أكبر من أن يكون زوجها، حتى وهى تناديه فى البيت باسمه المجرّد مسعود، كانت سرعان ما تنتبه فتكتمش نفسها خجلاً من الإجتراء على هيئته؛ حتى وهو ينام على صدرها يكاد يبكى من فرط الرقة طالباً منها أن تغفر له هذه الحياة التعيسة التى لا تكاد تضى بالضروريات.. لقد تضاءلت موهبتها البدائية كما تضاءلت شخصيتها أمام مواهبه الفذة.. كانت تحلم أن تكون أديبة تكتب القصص مثل أخيها الكبير، لهذا جاءت من بلدتهم فى محافظة المنوفية لتقيم معه وتبدأ بمساعدته فى عرض تجاربها البدائية على الصحف والمجلات بحثاً عن منفذ يقربها من ساحة الوهج والنضج. كانت كذلك عاشقة للفن التشكيلي وكانت بعض لوحات الرسامين المنشورة توحى إليها بأفكار قصصية تحاول كتابتها.. المجلات الثقافية التى ينشر فيها أخوها قصصه القصيرة كانت تقرؤها من الغلاف إلى الغلاف؛ فى واحدة منها ملزمة ملونة ثابتة للفن التشكيلي يحررها مسعود جاويش، أدمنت قراءتها وافتتنت بلوحاته بأسلوبه الرصين العميق المبتكر فى نقده لمعارض الفن

التشكيلى، مثلما افتتنت بلوحاته وموتيفاته التى رأتها فى بعض
المجلات.. سبحانه وتعالى يربط بين قلوب تتباعد بينها
المسافات والأزمنة والأحوال، يرتب لتلاقيها بأهون الأسباب
وأحياناً بصورة فكاهية كالنكتة؛ ليلتذاك هو وأخوها يجلسان
على مقهى زهرة البستان فى انتظار موعد ندوة الثلاثاء فى
أتيليه القاهرة؛ رفع أخوها ذراعه بالتحية لواحد يجلس على
ترابيزة على الرصيف لصق ورشة كهرياء السيارات؛ كان رجلاً
نحيلاً يرتدى قميصاً وينطلونا مترهلين، على وجهه نظارة
طبية سميكة تبتلع ملامحه المقبوضة المتجهمة بحاجبين
معقودين، يضع ساقاً على ساق، سمت من كبرياء شفاف يُغلف
كيانه الشديد التواضع كورق السلويفان النقى، منكب على
الترابيزة فى جلسته الجانبية، بيده اليمنى قلم رصاص
يشخبط به على كراسة رسم من كراريس التلاميذ، وبيده
اليسرى رغيف من الخبز البلدى راح يقضم منه فى لذة كأنه
يقضم من قرص من الحلوى، وليس ثمة من غموس، إنما توجد
كوبة الشاي الخمسينية يلثمها بين قضمات وأخرى.. وجعها
قلبها، تصورته عاملاً تعيساً من عمال الورشة المجاورة،
نازعته الرغبة فى أن تقتحم محل البقال المجاور للورشة،
وتشتري منه جبناً وزيتوناً وبسطرمة ولانشون وتكون بالمرّة
تصبيرة لثلاثتهم.. قبل أن تفعل فوجئت بأخيها ينتقل ليجلس
معه فانتقلت هى الأخرى بالضرورة؛ فوجئت بأن ما كانت تظنه
شخبطة إذ به مدينة غارقة فى الضباب وهى مستنقعات ترتفع
منها شجيرات وورد وأطيار شاردة. من إشعاع الخطوط حددت
أن يكون هو الذى فى بالها؛ سرعان ما قدّمه أخوها لها؛
الفنان التشكيلى مسعود جاويش.. لم تتبه كيف قدمها أخوها
له؛ لكنها رأت وجهها فى وجهه، فى ابتسامته الصامتة فى
عدستى النظارة فى إحمرار الخجل على خديه الناحلتين فى

يده الممدودة للمصافحة بترحاب وسعادة بدت حية حقيقية فى قبضة يده على يدها. الغريب أنه فيما بعد قال لها نفس العبارة بحذاخيرها، قال إنه رأى وجهه فى وجهها وكان ذلك فى اللقاء الرابع تقريباً، وهو اللقاء الوحيد الذى لم يكن محض صدفة إنما كان بتدبير سابق حيث جاء ليطلب يدها من أخيها وكان أغرب مدخل لأغرب عريس؛ كأنه جاء يقدم لها المسوغات لرفضه لا الإغراء بقبوله؛ قال إن له تجربة زواج فاشلة منذ ستة عشر عاماً، وأن سبب الفشل طبيعته الإنطوائية وطبعه الحاد ورغبته فى التوحد، وأنه منذ تخرجه فى كلية الفنون الجميلة بتفوق قد عُيِّن بوزارة الشباب فى وظيفة شبه فنية عقيم، لشدة تفاهة شأنها لم يترق فيها ولشدة نضوره من الوظيفة الحكومية لم يعرف الطريق إلى سلم الترقى فبقى قانعاً بمرتبه الضئيل يدفع نصفه فى إيجار لحجرات مفروشة فى شقق وينسيونات، يقضى بقية الشهر على فيض الكريم من رسماية لبعض الصحف إلى مقالة أو قصة قصيرة ينشرها لقاء أجر هزلى؛ أما لوحاته الكبيرة التى رسمها خلال السنين الطويلة الماضية فإنها موزعة على بيوت أصدقائه ومراسمهم؛ وأما اللوحات الصغيرة بالقلم الرصاص وبالحبر الجاف فلديه منها كمية هائلة لا يعرف كيف يتخلص منها حتى يتحرر من عبئها عند اضطراره للتعزيل من مسكن عابر إلى مسكن مؤقت فى حياة تبدو مؤقتة.. لكأنه أيقظ فى قلبها شخصية أمه الرؤوم التى لا يحلف إلا بها، فى الحال قررت أن تكون هى أمه وزوجه، شعرت بزهو كبير أن تتال هذا الشرف أن تكون شاطئ الأمان لهذا الفنان الكبير الموهوب؛ بدا الفارق العمرى بينهما معكوساً، فكأنها هى الأكبر منه بسبعة عشر عاماً.. آه من الأيام.. المهمة كانت أشد قسوة مما تخيلت؛ فهذا الفنان الكبير الموهبة، الحامل بين ضلوعه قلب طفل

غريـر ونفساً صافية هو فى الواقع مشكلة عويصة شديدة التعقيد؛ كان عليها أن تقضى السنوات الأولى ذاهلة من فرط الحيرة وسوء الفهم والصدمات المتتالية؛ اتضح لها أنه روح نبيلة معذبة، تتناقض تماماً مع الواقع على جميع الأصعدة؛ كانت طفولته الشقية المعذبة قد أنضجت ملكاته خلقت منه فيلسوفاً يصوغ خواطره ورؤاه بالريشة رسوماً وبالقلم قصصاً قصيرة ومقالات نقدية تتضح فكراً قيماً، راح يحلم بالبحث عن خلاص له ولطبقتة وللشعب المصرى كله من وهدة الهوان ومن خسة النخب؛ لكن خسة النخب التى تنتصر دائماً؛ بها يروح الانتهازيون الذين يحوكون الحياة إلى سيرك كبير لا يلمع فيه سوى من يجيد لعب الأكروبات السلوكية والسير على الحبال؛ لا سوق للقيمة؛ وعلى من يريد اللمعان والوصول إلى المناصب وتحقيق رغد العيش أن يكون مستعداً، للمقايضات والتنازلات بغير حدود؛ أما هو فلن يطأطئ رأسه ولن ينحنى، لن ترغمه الحياة على التنازل عن أى شىء ولو ضئيل من قناعاته..

الكآبة باتت قوقعة سميكة، تجاهد نادية لاختراقها وتكسير حداثتها؛ يفتح عينيه فى الصباح فيرى الشمس التى يعشقها مشرقة فى عينيها، فيضئ وجهه، تفرج القوقعة عن الطفل النبيل المطبوع على المودة، يحكى لها عن أمه عن إخوته عن طفولته فى مخيمات حرس الحدود ولكن لا يجئ بسيرة أبيه إلا نادراً.. من فضل الله عليها أن قوقعة الكآبة عنده خلقت قوقعة مضادة قادرة على الصد والاحتمال؛ كان يضيق بها ويتمنى لو تركته فى حاله فى عزلته إلى الأبد، فاعتادت أن تعطيه حق العزلة فيما هى جالسة أمامه بالساعات. كانت تعشق الأمومة وكان يرفض الخلفة رفضاً قاطعاً لها، كيف يقبل على نفسه أن ينجب عيالا لهذا الزمن الردى يستعبدهم؟..

اكتفت بأن تكون أمأ له وحده؛ من أجله بحثت عن عمل كى

تساعد فى النفقات، وفقت إلى عمل فى وزارة الثقافة، وفقت كذلك فى العثور على شقة من حجرتين فى مساكن شعبية بالجيزة؛ عندئذ رضى بأن يحقق لها الأمومة لولمرة واحدة، فجاءت ابنتهما روز التى أشاعت فيه البهجة؛ لكن القدر استكثر عليه فرحة الأبوة وهو يستعد لإدخالها الحضانة؛ كان قد أصيب من قبل بجلطة دماغية نجا منها فما أن تماثل للشفاء تماماً حتى أصيبت الدماغ بنزيف لم يستطع النجاة منه.. هل مات حقاً؟. دائماً تهرب من الإجابة مع أنها حققت وصيته ودفنت جثمانه فى بورسعيد.

لهفتها القديمة على الرجوع من العمل إلى شقتها فى الجيزة تحولت إلى بورسعيد.. منذ سنوات سبع وهى تأتى لهذه المقبرة ظهر الخميس من كل أسبوع لتبقى حتى غروب الشمس فتعود إلى القاهرة.. أصبحت تشعر أن هذه المقبرة هى بيتها الحقيقى ولا بد من أن تعتنى به؛ كافحت حتى أطاحت بالمقبرة بحوش مبنى، اقتطعت منه حجرة مسقوفة مساحتها متر فى متر تتسع لجسدين ضئيلين، أحاطت شاهد القبر بكل ما كان يحبه من زهور وورود، فى كل زيارة تضيف لمسة، زرعة، شتلة، مقعداً، صارت المقبرة تشكياً جميلاً، غذاها جسد الفنان الراقد تحتها بخصوبته ونشر فى المكان إشعاعه النبيل الجاذب، يظل يناديها طوال أيام الأسبوع حيث تشعر وابنتها بأنهما مفتربتان من أجل لقمة العيش فى القاهرة تستعجلان مقدم الخميس بلهفة واهتباط واشتياق العائد إلى بيته الحقيقى حيث ينتظر الأب وحيث تشعر هى أنه ينتفض قائماً ليكون فى استقباليهما وهو أشد اشتياقاً لهما، ولسوف يبقى صاحباً يجالسهما ويلاطف روز.. لم يعد القبر قبراً بل أصبح مقاماً يحتوى ثلاثتهم فى دفء وأمان.. ها هى ذى روز تتقافز داخله فى نرق وغبطة؛ تدخل وراءها؛ لكنها ما تلبث حتى

تنتهقر مرتدة بظهرها وقد لفت المشهد نظرها فراحته تحيطه
بناظريها: روز المقبرة والحجرة وأفرع الصبار وشجيرات الورد
وهي كأنهم جميعاً إحدى لوحاته الخالدة بنفس الألوان التي
كان يهفو إليها، من خلفها البحر ملأه زرقاء فردتها الريح
رفعتها طرحتها سماءً صافية سابعة، على مدد الشوف مدينة
بورسعيد كآبية الضوء باركة على نفسها كبقايا مراكب عتيقة
لفظها البحر من أزمنة بعيدة، وليس ثمة من قبل حتى ها هنا
سوى هذا الذي يُطل في استقبالهما من تحت هذا المقام.

من جب الذكريات ينبثق حلم
 رومانسي يتلخص في مشهد
 واحد كان متكررا في سنوات شبابه
 الأولى ولكنه كان المشهد الوحيد
 الذي هز قلبه بمعنى الحب، لأول
 وآخر مرة في حياته يذكر أن ظهر
 بيت سته كان ملاصقا لقهوة حمدون
 ذات الكراسى والترابيزات
 المصنوعة من القش.

مشوار مبهم

فى

صباح ذلك اليوم استيقظ سمير بك من نومه مبكرا كعادته قبل أن يُحال إلى المعاش منذ سنتين كان لا يزال يشعر بوحدة عميقة موجعة، لقد تزوج أولاده ورحلوا إلى بلاد بعيدة وراء أرزاقهم، ماتت زوجته بعد صراع طويل مع المرض اللعين، بات لا يأكل لقمة طازجة ساخنة ولا يستحم ويلبس غيارا نظيفا إلا يوم الجمعة من كل أسبوع حيث تجيء أم سيد الشغالة لتطبخ له طبق الأسبوع وتغسل له الهدمتين وتنظف الشقة نظير مرتب أكثر من نصف معاشه، وعند انصرافها يشعر أن فى داخله وفى حياته كلها أشياء وأوضاعا كثيرة جدا لا يعرف كيف يغسلها أو ينظفها، من فرط كثرتها لم يعد يعرف ما هى على وجه التحديد ولكن ربما كانت حياته بأكملها . بغير تفاصيل . يجب أن تدخل مغسلة كهربائية، أن الألوان لأن يخترعوها لخدمة الملايين من أمثاله .

على غير العادة كان متحمسا لمغادرة الفراش رغم أنه لم يعد يؤدي أى مهام عملية اللهم إلا حضور بعض اجتماعات بعض اللجان من حين لآخر فى هيئة أو أخرى باعتباره خبيرا متخصصا فى شئون النقل والمواصلات ورئيس مجلس إدارة سابق مشهودا له بالتبحر فى علم الإدارة نظريا وتطبيقيا، عاش به فى الوهم سنوات عديدة ينتظر استدعاء ليكون وزيرا للتنمية الإدارية فإذا بهم حتى فى مؤسسته لا يفكرون فى التجديد له عاما واحدا بعد وصوله إلى السن القانونية، أصبح لا شغلة ولا مشغلة، لا شئ يسليه أو يملأ

ولو جزءا من فراغه ثم إنه لا يزال بصحة جيدة ولديه القدرة على العمل ولكن هل يبلغ به الهوان، وهو الذى كان ينتظر الوزارة، أن يتسوله من أى أحد؟.. برامج التليفزيون مملة وكذابة وتلعب فى الدعارة الجسدية والعقائدية على المكشوف، صحف الدولة تلهج فى مدح ولى نعمتها، الصحف المستقلة تصيبه بالكآبة تجعله يكره مصر واليوم الذى ولد فيه مصريا.. مع ذلك كان يشعر أن وراءه مشوارا مهما، وأنه بات ليلته المنصرمة موقنا أن فى صدره شيئا مضمرا من قديم الزمن، أن الألوان لكى يفرج عنه ويقضيه.. ما هى طبيعة هذا المشوار يا ترى؟ لسوف يتذكره بعد قليل على كل حال، راح وجاء أمام مرآة التسريحة قاصدا دولاب الملابس عدة مرات وباب الحمام مرتين، أخيرا قرر أن يخرج على النظام الذى اعتاده مؤخرا، سوف يستحم ويغير ثيابه الداخلية، لم يعجبه شكله فى مرآة الحوض، قرر حلالة ذقنه بموسى جديد ليبحث شعره الخشن من شأفته. انعوجت شفتاه بخيال ابتسامة حين لاحظ أن بشرة وجهه لا تزال مشدودة بلا تجاعيد قمحية اللون تصنع مع سوائفه البيضاء غزيرة الشعر جاذبية تلفت النظر عن صلعته الدائرية المقببة كشمندورة عائمة وسط جزيرة من الملح فى مياه ضحلة.

حينما هطلت المياه على جسده من سماعة الحمام المتحركة وقع بصره . خلال الخيوط المائية . على قنينة شامبو راقدة تحت رف الصابونة والليفة، قد مضى عليها فى رقبتها ما يزيد على خمس سنوات، كانت ضمن مشتريات كثيرة اعتادت زوجه المرحومة أن تتسوقها شهريا من سوق المدينة الحرة فى بورسعيد، وفى آخر تسويقة لها اشترت له هذه القارورة من الشامبو الرجالى مع عدة حلالة كاملة بمناسبة عيد زواجهما الذى لم يكن يحتفل به أحد إلا إن تذكره من قبيل المصادفة، استعمل أدوات الحلالة وركن هذه القنينة فى رقبتها تلك ونسيها سيما أنه كان يستسهل الصابونة، لقد لفتت نظره عدة مرات لكن بعد رحيل المرحومة حيث انسدت نفسه عن الفرح والبهجة بل أصبح لا يكاد يستعمل الصابونة عند

استحمامه السريع بهدف ترطيب الجسم أو تدفئته لا بهدف تنظيفه أو تلميعه.. ولكن لماذا لا يجرب هذا الشامبو الآن؟ إن أجمل احتفال بذكرى المرحومة أن أستحم بعطرها، هكذا قال لنفسه وهو يدلق السائل فوق الليفة غزت نخاعه نكهة زكية الرائحة أصابته بنشوة مفاجئة أنعشته تحت الماء في نزق طفولي موحج، كلما دخل بالليفة بين فخذه يشعر بلذة فائقة في مداعبة عضوه بيد مغمورة برغوة الصابون.. يا للمفاجأة الكبرى، إن عضوه يتحرك بل ينتفض بل يتمدد بل يتشدد بل يتصلب محتقنا كأنه في عنفوان الصبا.. يا للغرابة إنه لم يعهد نفسه هكذا أبدا، على الإطلاق، أبدا أبدا لم يعشق هذه النشوة القوية بهذا العنفوان من قبل، عمره ما كان هكذا مزهوا ناهرا متحديا بل قادرا على النفاذ في القيشاني، فماذا يكون السبب يا ترى؟

عندما جلس في غرفة المعيشة بالفانلة والسرورال يشرب التمسكافيه مع البقسماط راعه أن احتقان عضوه يؤله، لعلها الذبالة الأخيرة في شريط الصباح بعد أن نضد زيتة نهائيا.. على كل حال ها هو ذا قد بدأ ينكمش على نفسه عندما بدأ هو ينشغل بالصور المعلقة حواليه على الحوائط، الصور هي التي دهمته وكان قد نسيها منذ فترة، خيل إليه أنه ليس وحده الآن في الشقة بل إن زوجه وعياله وأقاربه وأزواج وزوجات عياله يرمقونه من براويز الصور، في الحال شعر بالغييب، بل انزعج كأنهم رأوه في الحمام سائبا كالطلوقة لم يكن ليحتشم بل كان يحرض ويداعب شأن السفلة معدومي التربية... عندئذ انكمش عضوه تماما كأن لم يكن لدرجة أنه تحسسه خلسة فلم يجد ثمة من نتوء يرشد عنه.. أشعل سيجارة، حصر الدخان في منخريه محاولا التركيز لعله يتذكر ذلك المشوار المبهم المهم معا، كل ما يتذكره الآن أنه كان في حالة من الضيق والكآبة بلغت ذروتها ليلة أمس ولم يضمحل دخانها الكثيف إلا حينما زحف على مخيلته ذاك الخاطر الذي أشعره بالراحة فمال إلى تنفيذه، غلطته أنه لم يقلب فيه ويتعرف على شيء من

تفاصيله كانت حرة بأن تذكره به الآن، إلا أن ما حدث أنه من شدة فرحته بفكرة المشوار لم يشأ فض بكارتها وهو خارج من أسلاك اليقظة الشائكة إلى ظلام النوم الذى كان يشده بقوة فاستجاب له تاركا ذلك الخاطر على باب اليقظة الموارب فانغلق دونه باب النوم العميق فطمسه.. يذكر قبل مجيء النوم أنه كان يفكر فى وحدته الموحشة وأنه بكى إذ اكتشف لحظتها أنه لم يكن طوال عمره إلا وحيدا، تزوج وأنجب ولكن لا يذكر مطلقا أنه عاش حبا أو مارسه، كثيرا ما تمنى لو يتبادل العواطف مع أنثى، كثيرا ما كان عياره يهدد بالفلتان مع بعض موظفات يرقن له ويجد فيهن تجاوبا مشعا بالعاطفة الأنثوية الناعمة، لكنه ما يلبث حتى يرتدع فمن حسن حظه أو من سوءه لا يدري أنه كان يصعد سلم الترقيات بسرعة فهو دائما أبدا فى مكانة يجب أن يصونها ويحفظ كرامتها بالسلوك القويم.. ها هو ذا قد نجح بتفوق حتى وصل إلى السقف النهائى ونجح فى أن يربى عياله ويفيد منصبه بشرف ونزاهة. أمانة لكنه بعد إحالته إلى المعاش يتبين له فى ظل الفراغ أنه كان موظفا بمعنى الكلمة، مجرد موظف فى الحكومة وفى الحياة الزوجية فأدى واجبه والحمد لله فى العملين على أكمل وجه لكنه فى النهاية نسى أن يعيش، أن يمارس الحب ومتعه، أن يسافر بغير مهمة عملية، أن يفعل شيئا لنفسه متحررا من جميع الأعباء.

ما هذا الذى حدث؟.. فوجيء بأنه ارتدى أجمل ما عنده من ثياب ذات ألوان زاهية متفائلة.. فوجيء أنه ترك سيارته مركونة تحت البيت وجاء راكبا التاكسى إلى موقف أحمد حلمى.. الآن ينجاب الغموض عن مساحة عريضة مرئية، هو إذا قد جاء إلى هنا بغية السفر إلى واحدة من بلدان الوجه البحرى. عندئذ أخذ طريقه تلقائيا إلى سيارات خط مدينة دسوق، ركب السيارة التى كانت. وكأنها ضالعة فى التدبير. تنتظر فردا واحدا.. هذا جميل، هو إذا سوف ينزل فى مدينة دسوق ليركب من موقفها واحدة من سيارات الأجرة المسافرة إلى مدينة فوة على فرع رشيد.. لماذا إذا

يا ترى وهذا ما سوف يتبينه مع انطلاق السيارة عند انعقادها من خنقة القاهرة إلى الطريق الزراعى.

ها هو ذا قد صار فى قلب مدينة قوة . يا للعجب، قدماء تخادعانه، هو يريد المشى على كورنيش النيل عند مسجد وضريح سيدى أبو النجا المبنى فى قلب النهر، لكنهما قادتاها إلى مرتع طفولته وصباه فى ميدان المسمس، إنجاب الغموض كله.. ها هو ذا الدرب اللولى الضيق الذى كانت تسكن فى بيت فى نهايته سته أم أمه وشقيقته الأرمل بعيالها الكثار، إنه ليعشق هذا الدرب كأنه الطريق إلى نبع الحنان الصافى: فى السابعة من عمره كان يتجاسر على السفر وحده من بلدتهم البعيدة إلى هذه المدينة ليمكث فى حضان ستة مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر فى كل إجازة صيفية، سته هى التى اشترت له القمصان والبنطلونات والجواكت والطرايش والأحذية وأنفقت على تعليمه طوال سنواته الأولى إلى أن حصل بالتفوق على المجانية، وأذاقته من الطعوم والحلويات ما لم يكن قد سمع به فى بلدته، أجمل سنوات الشباب أمضاها فى شرفة سته المطلة على شباك مواجه فى نفس الطابق الرابع، يفصل بين البيتين شارع عمومى يطل عليه بيت ستي من الخلف، إلا أن الواقف أو الجالس فى شرفة ستي يكاد يكون بكامله داخل الشقة ذات الشباك المقابل، لم يكن ثمة من رقابة ولكن الأدب حينذاك كانوا لا يزالون يفضلونه على العلم فى تربية العيال.. قلبه ينقبض الآن وهو - لأول مرة فى حياته - يتجاوز درب سته فلا يتدفع إليه فى شغف، كان يعرف أن الجميع قد رحلوا ولم يبق إلا أحفاد لست أعرفهم ولا يعرفوننى فى الغالب هكذا برر لنفسه انجذابه إلى الشارع العمومى الذى خلف بيت سته وقلبه حينئذ ينتفض بقوة أخافته.. من جب الذكريات ينبثق حلم رومانسى يتلخص فى مشهد واحد كان متكررا فى سنوات شبابه الأولى ولكنه كان المشهد الوحيد الذى هز قلبه بمعنى الحب، لأول وآخر مرة فى حياته يذكر أن ظهر بيت سته كان ملاصقا لقهوة حمدون ذات الكراسى

والترابيزات المصنوعة من القش.

رقص قلبه من الفرح إذ وجدها فى مكانها وإن تجدد شكلها
وجىء لها بكراس وترابيزات بيضاء من البلاستيك - جلس إلى
ترابيزة على الرصيف، يا الله، ما يقرب من خمسين عاما مرت وكل
شئ باق على حاله، الشباك المواجه لبلونة سته لا يزال كما هو
كل ما هنالك أنه قد خيل إليه أن ارتفاع البيت قد هبط عن ذى
قبل، جاءه الجرسون، هو نفس الوجه القديم بحدافيره، نفس
الجسد الضخم المكروش، ابتسم، فابتسم له الجرسون أفلت لسانه
قال: "أظنك المعلم حمدون؟"، انبسط وجه الجرسون، هتف: "أنا
حسون ابنه الكبير! وعلى فكرة أنا باشبه على سعادتك! إحنا على
فكرة لعبنا سوا فى ميدان المسمس كل الألعاب"، ابتسم وقال:
"مضبوط! أنا سمير"، هتف حسون فاتحا ذراعيه: "سمير بك ابن
بنت الحاجة نفوسة!" طالت القعدة بينهما واحلوت الذكريات التى
اتضح أنها كانت غزيرة جدا وهو لا يدري، أخيرا قال سمير بك
وهو يشير إلى شباك الطابق الرابع المواجه: "فاكر الشباك ده يا
حسون؟"، ضحك حسون مستغريا: "إلا فاكرا قصدك إيه؟" قال
سمير بك فى صوت متهدج: "كان فيه ملكة جمال تبارك الخلاق!
بتقف فيه على طول تملاه نور وعطرا قمر مين وبتاع مين؟ تصدق
يا حسون إنى عمرى فى حياتى ما حببت غيرها؟ كان بيتيالى إن
جدائل شعرها مخلية لون الشمس برتقانى! كنت بأقعد بالساعات
الطويلة أتأمل فى وشها وفى جسمها البديع! وهى مؤدبة جدا!
تبص لى وتبتسم وكان فيها حياء ساحر يا جدع! تفتكرها أكيد يا
حسون!" وكان حسون قد شرد وتجهم وبان عليه الأسف والأسى ثم
زفر من صدره ثم هتف: "طبعاً مين ما يفتكرش الشيخة صباح! دى
يكفيك الشر كانت عبيطة وفهمها على قدها فكانوا أهلها حابسينها
لأنها لو نزلت الشارع تتخطف وتحصل مقتلة على جمالها! عشان
كده يا عبنى كانت طول النهار فى الشباك ده تشوف اللى تقدر عليه
من الدنيا! وفضلت على كده لحد ما عجزت والناس بقت تيجى

تتبارك بيها وتديها حسنة! وف يوم صبحوا لقوها ميتة فى الفرشة
وشها بيضحك! تصدق إنهم بنوا لها ضريح والناس بتزوره؟ تحب
تشوفه؟" هب سمير بك واقفا: "مرة تانية بقى! الله يرحمها ويرحم
الجميع!، صافح حسون بحرارة ملتهبة، مضى فى الشارع وقد
التبست خريطة المكان فى ذهنه لوهلة، سرعان ما استضاءت،
فمشى فى حماسة وحيوية وجدية فى اتجاه موقف السيارات
متعشما أن يكون فى القاهرة قبل حلول الظلام.

وكانت يده قد سحبت رزمة
 الفلوس من يد وكيل النيابة
 وأعادتها إلى جيب الباطو الذي لا
 يغيره شتاء وصيفا، ثم هتف يا
 رجاله بسرعة! ادخلوا وافحتوا،
 ونظر إلى كبرائهم ثم استدرك:
 وبعدين نبقى نتجاسب على
 ترميم التربة!

ما ليس يضمه أحد

انجص التريى محمود أبو زيد مستنداً بكوعه على وسادة فوق مصطبة لصق الحوش الذى استعمره جده وحولّه إلى بيت دون اعتداء على غرفة الدفن المنزوية فى ركن قصى، أحاط ذلك الحوش البديع المهندق على مبعدة قليلة منه بنظرة فاحصة تقيض بالتقدير للمهندس الذى شيده على هذا النحو المهيب كمعبد فرعونى.. ثم قرر فى الحال أن يعرضه للبيع، أما أن المبنى فى حد ذاته أثرى قد سجلته هيئة الآثار ضمن المباني الممنوع هدمها فهذا لا شأن لنا به على كل حال، إنما نحن يهمنى ما فى داخله من تربتين فسقيتين، واحدة للرجال والثانية للنساء، أوراق الحوش فى حوزته، الدفاتر الموروثة عن جده تسجل أن الحوش قد أنشئ بعد هوجة عرابى بقليل، وأنه ملك لشهيندر التجار الزياتين الحاج عبد الرشيد البشتيلى، وأن آخر من دُفن فيه كان حفيداً لأحد أحفاده مات فى عهد الثورة، ثمة خاطر عبّر خلف رأسه نخسه كالدبوس: لكنك لم تتأكد بعد إن كانت العائلة قد انقرض نسلها أم لا وأنت حينما ذهبت إلى بيتهم المهيب فى حى الحلمية قال لك جيرانهم إنهم لا يعرفون شيئاً عن أصحاب هذا القصر، ومنذ وقت قريب ذهبت مرة أخرى لتسأل إن كان أحد من العائلة لا يزال موجوداً فى هذا القصر أم لا؟ فإذا بك لا تجد القصر نفسه! لقد أزيل وأقيمت مكانه عمارة حديثة اتخذها البنك الأهلى مقراً لأحد فروعها! كل ما قدرت على جمعه من معلومات أن العائلة كانت تحت الحراسة

وداخله فى مشاكل مع الثورة! ولكن هل يُعقل أن أحدا منهم لم يمت طوال هذا العمر الطويل؟ الأغلب أنهم هاجروا واستوصلت شأفتهم من مصر فعلام تنتظري أبا حنفى؟ حرام أن يضيع منك هذا الحوش التحفة المعمارية دون أن تنتفع من ورائه بلقمة عيش طرية. من غده أمر صبيانه فنشطوا، رفعوا المجاديل عن الفسقيتين، نظفوهما من الحشرات، تركوهما للهواء الطلق فى مواجهة الحجرة المدة لاستقبال الزوار مزودة بمفروشات وثيرة أكلتها العتة، ما لبث الخبر حتى شاع فى جميع أنحاء حى الإمام وما جاوره من أحياء القلعة والفسطاط والدراصة: حوش الشهبندر معروض لمن يطلب حق الانتفاع به، بدأت وفود الباحثين عن مكان طيب ومهيب لرقدتهم الأخيرة. الحاج عبد السلام زرابينو تاجر الخضراوات بسوق العبور وافق على أن يدفع عشرين ألفا مقابل الإمساك برخصة حق انتفاع يلتزم المعلم محمود باستصدارها له من إدارة الجبانات فى إدارة محافظة القاهرة، لم يكن محاميه معه ساعتئذ ليكتب العقد بينهما بصيغة مستعارة متفق عليها كمبرر لدفع الفلوس: عقد ترميم وتجهيز المقبرتين مقابل مبلغ قدره كذا، من شدة إعجاب الحاج بالحوش وخوفه من ضياعه منه دفع للمعلم عشرة آلاف جنيه دون إيصال، وتعهد بدفع الباقي عندما يمسك الرخصة بيديه، المعلم محمود أبو زيد شرع فى الحال فى تحلية منظر الحوش ليوهم الحاج عبد السلام بأنه صرف على ترميم الحوش، قام بتعقيق سطح الشاهد، دهن حديد البوابة بالسلقون الأحمر، نشر أصص الصبار فى أماكن بارزة، رش الأرض حتى تظل مستحمة بالماء على الدوام فى حالة ترحيب ورعرة، فلما أحلّ منظر الحوش وسطع جماله تحت قرص الشمس وسط بؤرة من الدمامل والأورام الأرضية الكالحة تتخللها أسوار وجدران باثثة وحفر غويطة مموهة بكثبان الرمل الذى يصفه المعلم محمود بأنه طحين البشر لعلها جحور للثعالب والذئاب المتسللة من صحراء الماليك فى جنوح الظلام، ارتفع قدره فى أنظار الكثيرين، ذاع خبره على نطاق أوسع، وصل إلى علم رجل المال طارق مصطفى

ذلك الملياردير الذى يستثمر أمواله فى الأغذية الفاسدة وفى الملابس، وفى الاتصالات، إنه يموت فى الأبهة، من فرط إدراكه لوضاعة أصله . كما يهمس المعلم محمود فى أذنك دون أن تسأله . يستعير تاريخ غيره لياوى إليه، ولكى يقنع نفسه بأنه بات من عليّة القوم بعد الملابس الفاخرة والأحذية الغالية والسيارات الفارهة والمحمول والمأكول والمشروب يجب أن تكتمل الصورة بمدفن ذى عراقة للعائلة، كان المعلم محمود مستوعبا لهذه الصورة جيدا حينما أتاه السمسار برجل الأعمال طارق بك مصطفى، الذى ما إن شاهد الحوش حتى وقر فى ذهنه أن الله سبحانه يعمل لصالحه، لقد وقف مبهورا يسائل نفسه بصوت عال: ما الداعى لشراء أرض فى القطامية وبناء حوش يتكلف الشيء الفلانى فى حين أنه قد جاءته الضخامة كلها لحد عنده وبثمن سيكون بخسا مهما ارتفع قدره؟ لن تعرف الأجيال القادمة أن هذا الحوش الأفخم من قصر ملكى وأشد هيبة من معبد فرعونى قد بناه شهيندر التجار فلان الفلانى فى الزمن الفلانى، إنما ستعرف . فحسب . أنه مدفن عائلة رجل الأعمال الشهير طارق مصطفى، ولسوف يستطيع بنفوذه أن ينظف المكان حوله من هذه الدمامل والأورام، وأن يختط إليه ممرا نظيفا من الحصباء يمكن أن تدخل فيه السيارة.

دخل طارق بك على المعلم محمود أبوزيد بصدر واسع: "أعطيك خمسين ألفا لو سلمتني رخصة حق انتفاع ما دمت لم تتعاقد رسميا مع صاحبك، ردّ له العشرة آلاف ويا دار ما دخلك شرا". المعلم محمود يبيع أباه مقابل ألف واحد فما بالك بخمسين؟ فى الحال تعاقد كتابيا مع طارق بك وأخذ شيكا بخمسة وعشرين ألفا، فبكر من غده بتركيز شديد على إدارة الجبانات حتى استصدر الرخصة باسم طارق بك وعائلته: فسقية للرجال والأخرى للحريم، صرف القليل من المال لتسليك الإمضاءات وتشهيل الاختام والتوثيق، فى أقل من أسبوع كان فى البنك المصرى الدولى يصرف الشيكين معا بخمسين ألفا، احتجز العشرة آلاف وحدها، وبقي فى انتظار أن يلتقيه الحاج عبد السلام فيردها إليه.. إلا أن الحاج عبد

السلام كان فص ملح وذاب، شهور طويلة تقارب عاما مضت دون أن يتصل أو يجيء أحد من طرفه ليسأل عن أمر الحوش.

لم يدر بخلده أن الحاج عبد السلام زرايينو ربما يكون قد أصابه مرض خبيث والعياذ بالله حتم على أهله وذويه السفر به إلى الخارج لعلاجهم وهم ناس موسورون.. وهذا ما كان قد حدث بالفعل أثناء ذلك كان طارق بك قد بروز الحوش فجعله تحفة مضاءة بالنيون يسبح في بحر من الخضرة الثقيلة من داخله ومن خارجه: صبار ونخيلات ولبلاب وزهور ونباتات عطرية، رخامة فخيمة تثبت على صدر الشاهدين، لافتة نحاسية أفخم تثبت على ضلع البوابة الحديدية من الخارج، كالون مع قفل بجنزير على البوابة، وفي اليوم الذي كان فيه طارق بك يعاين الحوش بعد تنقيحه وترميمه وتجميله واسترداد صورته يوم تم بناؤه، فوجئ الجميع بتليفونات تطلب المعلم في إلحاح، والمعلم في حالة مرتبكة غير مفهومة، ما لبثت حتى اتضحت: جنازة قادمة بموكب هائل من السيارات، إنه نعش المغفور له الحاج عبد السلام زرايينو. أخذوا طريقهم نحو بوابة الحوش، فتصدى لهم رجال طارق بك في خشونة واستتكار مشيرين إلى اللافتة النحاسية وإلى طارق بك نفسه. توتر الموقف، تشاحن الرجال مع الرجال، صوّت النساء في ارتياح، كلمة خارجة من هنا، كلمة متهورة من هنالك، ظهرت مسدسات، ارتفع صوت طلقات الرصاص في الهواء.. ثمة من كانوا قد اتصلوا ببوليس النجدة الذي وجد الأمر غريبا وخطيرا فما لبث حتى حضر.

تعقد الموقف أكثر، جىء بالمباحث والنيابة في سرعة تعكس مدى أهمية الحاج عبد السلام من ناحية ومدى نفوذ طارق بك من ناحية أخرى. قال المعلم محمود إنه ليس بينه وبين المرحوم أى تعاقب، إنما المرحوم قابله ذات يوم وأوصاه باختيار تربة نظيفة وترك له عشرة آلاف جنيه عربونا ثم اختفى عاما بأكمله، وهو ليس بمسئول عن أى شئ تجاه المرحوم، ولكن لأنه رجل يخاف ربنا ولا يقبل الحرام فإنه اعترف بوجود عشرة آلاف جنيه في ذمته للمرحوم وهذا هو المبلغ الأمانة يا حضرة النيابة ظلت محتفظا به أنتظر مجيئه

ليأخذه فجاءنى بعد فوات الأوان. والنيابة وجدت أن كلامه منطقى وقانونى، راجعت الرخصة والأوراق أمام أهل الميت، من ثم فليس لهم أى حق عند المعلم محمود سوى هذا المبلغ الذى يجب أن يُشكر على الاعتراف به ورده.. فى النهاية لابد أن يتقدم العقلاء بعد فشل القوة الفاشمة، استعطفوا المعلم محمود بأن يأخذ العشرة آلاف وفوقها مثلها لو أراد فى سبيل إكرام هذا الميت المحترم الذى لا يليق أن يتعرض لمثل هذا الهوان. الجميع تأثروا بالموقف، راحوا جميعا يرمقون المعلم محمود بنظرة استرحام متفائلة. عندئذ تذكر المعلم شيئاً خطيراً جداً لم يكن ليخطر له على بال، تذكر المقبرة المخبوءة فى أعماق الحوش الذى يسكنه، إنها مغلقة منذ مائة عام على الأقل وإنه لمتأكد تمام التأكد من انقراض أصحاب الحوش منذ ما قبل ثورة يوليو، وإنه وزوجه الحاجة أهة لن يضيرهما فى شئ أن يستضيفا رجلاً طيباً كالحاج عبد السلام زرايينو، سوف ينالهما من ورائه رزق وفير.. وهكذا رفع يده شهامة وشجاعة أدهشتهم: "يا رجال أبوكم هذا فى عيني لن يدفن إلا دفنة ملوكية فى حوش الأمير شخصياً فى بيتى! وهذا شئ لا يقدر بهال! أن يعيش جثمان أبىكم فى ونس وخدمة لا تنقطع! ومرحباً بكم فى زيارته فى أى وقت تشاءون! عندنا حجرات تكفى لراحتكم أياماً وأسابيع لو أردتم!".

وكانت يده قد سحبت رزمة الفلوس من يد وكيل النيابة وأعادتها إلى جيب البالطو الذى لا يغيره شتاء وصيفاً، ثم هتف "يلا يا رجاله بسرعة! ادخلوا وافحتوا"، ونظر إلى كبارائهم ثم استدرك: "وبعدين نبقى نتحاسب على ترميم التربة!" استراحوا جميعاً لهذا الحل، سبقهم هو ليفتح لهم قفل غرفة الدفن، استعان بمجموعة رجال لدفع الباب إلى الوراء حيث قد غاص فى الأرض والرطوبة وأعاقه صدى المفصلات.. تم دفن الحاج عبد السلام زرايينو معزراً مكرماً فى مرقد الأمير المملوكى.

استأنف المعلم محمود أبو زيد جلسته اليومية العصارية على مصطبطه يسرح الطرف فى فخامة هذا الحوش الذى أحيا المنطقة

وأعطائها ضوءاً وجمالاً وأنساً، وذات عصرية مشابهة، بعد بضع سنين، كان يستريح من تدخين الشيشة فراح يتسلى بقراءة جريدة المساء التى يدوم على قراءتها ليتابع أخبار ابنه لاعب الكرة وفريقه الأهلئ. انخطف لونه فجأة عندما وقعت عيناه على المانشيت الكبير. طائرة مصرية تسقط فى نفس المنطقة الخطرة فى المحيط الأطلنطئ.. البحث جار عن الصندوق الأسود وعن الجثث.. رجل الأعمال طارق مصطفى وعدد كبير من شخصيات مرموقة كانوا من بين الركاب.. قرأ الحادثة أكثر من مرة، راح يصفق كفا على كف يطلب ستر الله وعفوه وغفرانه، وفى صدره قوله سبحانه وتعالى ما معناه: "وما تدرئ نفس ماذا تكسب غدا وما تدرئ نفس بأئ أرض تموت".

فى اليومين التالئين كان يترقب رنين الهاتف ويحوم حول حوش الشهبندر الذى آن له أن تفتح فسقئته لتستقبل جثمان المنتفع بها الذى لن يلبث حتى ىجئ فور العثور عئيه فى قاع المحيط الأطلنطئ.. ولكنه بعد أيام قليلة تلقئ برقية مكتوبة بالآلة الكاتبة السريعة بحبر باهت وحروف متداخلة كنقط متجاوزة يصعب قراءتها، عرضها على كل من التقاه من تلاميذ الحئ ورجاله القارئئ، فتعثروا جميعاً فى فك ألغازها، لكنهم فهموا بالوئم أنه تليغراف قادم من أمريكا يبلغ المعلم أبوزئد . لا توجد كلمة محمود . بأن ُجهز الحوش لاستقبال عزيز لئبهم، الإمضاء: صاحب حوش الشهبندر.. عندئذ فهم . بالوئم أيضاً . أن فرق الإنقاذ الأمريكية الشغالة فى المحيط التى تصطاد الجثث والحقائب قد عثرت لا شك على جثمان طارق بك وأن أهله قد تسلموه فى أمريكا ويعثوا له بهذه البرقية لينفتح الحوش ويرفع المجادئل ويستعد، بالفعل أمر صبيانه بفعل ذلك، قاموا برش الأرض بالمياه، رصوا عددا من الكراسئ، جلسوا فى الانتظار.. فى مساء اليوم التالئ، والشمس فى موقف الشفق، حضرت سيارة نقل الموتئ، ومن ورائها بضع سيارات ملاكئ شكلها أسود مهيب نزل الرجال حاملئن الجثمان، لحق بهم صبيان المعلم فحملوا الجثمان عنهم ونزلوا به إلى

الفسقية ومن ورائهم المعلم حيث تولى بنفسه عدله فى الرقعة الشرعية فى اتجاه القبلة، ثم أدى طقوس الترحم، ثم أمر فأعادوا المجاديل الحجرية فسدت فوهة الفسقية، أهالوا عليها التراب حتى اختفت.. عندئذ انتبه المعلم محمود إلى أن أحدا ممن يعرفهم من رجال طارق بك لم يظهر، لكنه رأى أفنديا نصفه أمريكى ونصفه مصرى يتكلم المصرية كأبناء حى الإمام وإن بلكنة خواجاتية خفيفة الظل جداً كاد المعلم يصرخ من شدة الفزع، راح يتساند حتى لا تميد به الأرض، كانت ملامح عائلة الشهبندر واضحة بل منحوتة فى وجه ذاك الأفندى اللطيف الذى برغم ذلك قال له: "ألا يذكرك وجهى بأحد، حملق فيه مأخوذاً: "حضرتك تقرب للشهبندر؟". قال الأفندى: "أنا حفيد المرحوم.. والمدفون الآن هو أبى! أصغر وآخر أبناء الشهبندر، العقبى لك تجاوز المائة من العمر بأكثر من عشر سنوات! كانت وصيته الوحيدة أن يُدفن فى حوش العائلة فى مصر، هو الذى رسم لنا خريطة المكان مع الوصية! ودون العنوان وجميع بيانات الحوش والمدفونين فيه من عيال الشهبندر! غير أن الأفندى أشار إلى الرخامة واللافتة النحاسية: "لكن إيه ده؟"، وبان الشر فى وجهه، فما كان من المعلم إلا أن نادى صبيانه "واد يا رجب إنت وهو شيل الرخامة دى واليا فطة دى حالا! شوف الرخامة القديمة فين وهاتها وركبها مطرحها إحنا متأسفين خالص يا سعادة البية من كتر الغياب افتكرنا.. لكن الأفندى لم يكن سهلاً، استدرجه بصنعة لطافة إلى قسم الشرطة، أخذ عليه تعهداً بصيانة الحوش وأن يكون مسئولاً عنه لقاء راتب شهرى يقبضه إجمالاً بداية كل عام، العجيب أنه فى جلسته اليومية على المصطبة عصر ذاك اليوم قرأ فى جريدة المساء أن الجثث الفارقة اختفت ولم يظفروا منها إلا بجثث قليلة جداً يستحيل التعرف عليها بعد أن نهشتها كائنات البحر المتوحشة.

ثم قرصه المخرج في خده
 بمداعية ذات معنى قائلاً:
 صحيح أن هذه النجمة هي المثل
 الأعلى بالنسبة لجرذ مثلك، ولكن
 عليك أن تتعلم كيف تفصل بين
 مشاعرك الذاتية ومشاعر الشخصية
 التي تمثلها، كذلك أن تفصل بين
 شخصية الممثل المشارك
 والشخصية التي يمثلها.

فيدرا الأثمة

هو

شخصيا لم يكن يجترئ على هذا الطموح، فكاريमान إذا كانت بالنسبة لغيره مطمحا فنيا، وبالنسبة للكثيرين مطمحا جنسيا فإنها بالنسبة له أشبه بطوطم مقدس، هي عنده تشخيص للحلم الفنّي ورمز للفن في آن معا، وهو دائما أبدا يسخر من طموح الطامحين في اقتسام البطولة معها لاعتقاده أن أحدا منهم - مشهورين أو مغمورين - ليس يطاول قامتها الفنية التي خلّبت لب الجماهير سنين طويلة انفردت فيها بنجومية الشباك والقوة الفنية معا، ويسخط على الطامحين فيها جنسيا ليقينه - لا يدري كيف - من أنها برغم فتنتها الجسدية الصارخة تبدو أظهر مما يتخيل أولئك السفلة الذين يفكرون بأعضائهم التناسلية لا بعقولهم التي لو فكروا بها مثله لتبينوا أن كاريمان ليس يشغلها في الدنيا سوى فنّها الذي ضحّت من أجله بالزواج وبالمتع الجنسية الرخيصة.

ليلة التتويج الليلة.. من فرحته يكاد يصيح بها في غبطة لكل من يلتقيه في طريقه إلى مبنى المسرح في وسط المدينة، مثلما توقع رأى الإعلانات قد علقت على لوحات الشوارع، صورته على "الأفيشات" بجوار صورة أكبر نجمة سينمائية في البلاد: كاريمان. الآن يستطيع الاطمئنان إلى أن الحلم صار حقيقة، لسوف يحضر الليلة جميع النقاد والصحفيين وكلهم من عشاق النجمة الأولى، بعضهم - مثل الكثير من زملاء دفنّه في بكالوريوس المعهد العالي للفنون المسرحية - يستكثرون عليه هذه الفرصة الخطيرة التي ستضعه على عتبة النجومية، ابتسم

لنفسه حين طالعه وجهه فى المرآة العاكسة إذ هو جالس على الكبة الخلفية فى سيارة التاكسى: يجب أن يؤمنوا بالخط وبالقدر، كل الممثلين الشبان يحلمون بالتمثيل أمام نجمته الأولى ولو لمشهد واحد، فما بالك لو كان الممثل لا يزال طالبا فى السنة النهائية وفى دور بطولة مطلقة؟

عزم على سائق التاكسى بسيجارة حينما لاحظ أن الأفيش قد لفت نظره، فلما لم ينتبه السائق إلى الربط بينه والصورة على الأفيش قال لنفسه إنه ليفخر بأنها اختارته بنفسها، طلبت من المخرج - العائد لتوه من بعثة دراسية إيطالية - أن يلعب دور ابن زوجها فى المسرحية وجه جديد ذو صفات جسدية وشكلية معينة، إضافة إلى موهبة التمثيل، وبناء على رغبتها جىء بالتابعين من طلبة المعهد وجرى اختبارهم أمامها بدقة، وقد أشرفت الدنيا كلها حينما تلاقت وجهة نظرها مع وجهة نظر المخرج فى الإعجاب به، وبالفعل يحصل على الدور ويمضى فى تدريباته طوال ثلاثة أشهر فيثبت جدارته يوما بعد يوم.. والليلة سيتم العرض كاملا بالحركة والإضاءة والملابس التاريخية، على جمهور من خاصة المتقنين المولعين بفض المسرح.

فيما هو يعبر خشبة المسرح إلى حجرته فى الكواليس ليلبس ملابس الدور ويسلم نفسه للماكير يرسم له وجه الدور وملامحه التقاه المخرج أتيا من حجرة كاريمان، فاستوقفه، نبه عليه للمرة الأخيرة أن يكون لينا مرنا فى المشاهد العاطفية التى تدور بينه والنجمة كاريمان، قال له إن تمثيل الخجل فى الشخصية الفنية ليس يعنى أن يكون الممثل نفسه خجلا من الممثلة التى يمثل أمامها، إنه يجب أن يكسر حاجز الرهبة من نجمته المفضلة حتى لا يكون متخشيا فيفسد مصداقية وقوعه فى الغواية، إن الخجل يجب أن يزول عن "الولد" شيئا فشيئا حتى إذا جاء مشهد الغواية كان الولد مطواعا بحيث يقنع المشاهدين بأنه كان فى الأصل مستعدا للوقوع فى الغواية، عليه كممثل أن يشخص هذا بكل ما يملك من خيال وشعور، وفى هذه الحالة عليه أن ينسى أولا وقبل كل شيء أن هذه التى تقويه ليست هى نجمته الشهيرة كاريمان، إنما هى محض امرأة مثيرة خليعة متبرجة حتى إن كانت زوج أبيه.. ثم قرصه المخرج فى خده بمداعبة ذات معنى قائلا: "صحيح أن هذه

النجمة هي المثل الأعلى بالنسبة لجرذ مثلك، ولكن عليك أن تتعلم كيف تفصل بين مشاعرك الذاتية ومشاعر الشخصية التي تمثلها، كذلك أن تفصل بين شخصية الممثل المشارك والشخصية التي يمثلها".

تحت يدى "الماكيبير" جعل ينظر لنفسه في المرأة معجبا بهذه السوالف الطويلة وباروكة الشعر الغزير الأشقر.. لقد صار بالفعل فتى جميلا بل فاتنا بقوامه الفارع الممتلئ الرشيق، كان مستوعبا تماما وجهة نظر المخرج فجعل يفكر في كيفية أن ينسى أنه يمثل أمام مثله الأعلى في التمثيل دور مراهق تغويه امرأة شبيقة اسمها فيدرا تزوجها أبوه العجوز الثرى، وهى الشابة فى الريعان، كان مهموما مرتبكا مضطرب الأمعاء يكاد يوهن من استحالة الاجترأ على حرمة نجمته، كيف سيأخذها فى حضنه ويقبلها فى شفيتها ويعصرها بين ذراعيه القويتين فى سخونة عارمة حتى وإن كان ذلك مجرد تمثيل،.. راح يستعرض معلوماته عن هذه المسرحية العالمية الشهيرة، "فيدرا" التى تعاقبت على تمثيلها أجيال من عباقرقة التمثيل فى العالم، تذكر آخر فيلم مأخوذ عن هذه المسرحية بعنوان "فيدرا الآثمة"، حاول أن يتذكر المشاهد الساخرة ليسترشد بالممثل الإيطالى الذى لعب الدور، لكنه عجز تماما عن تذكر أى شىء، ولا حتى أسماء الممثلين، فخير له إذا أن يركز على ما يجب أن يفعله الآن.

دقات خشبة المسرح زلزلت كيانه إيذاها بفتح الستار.. سرعان ما تباعدت شخصيته الأصلية بمجرد أن وقف ملقيا على نفسه نظرة نهائية فى المرأة، لقد انتفت شخصيته، اختفت فى المنطقة الخلفية المظلمة صارت مجرد خط ضوئى شاحب يهديه إلى الحركة، الدنيا ما لبثت حتى أشرقت عند دخلته فى أول مشهد، عاصفة التصفيق رجت الأرض فانحنى تحت ثقلها يرد تحية الجمهور، فما أن رفع رأسه بأول جملة حوارية حتى أخذته المفاجأة البهيجة، إنه ليس يرى نجمته الرهيبة التى كانت متحفظة فى التدريبات تعالج ارتباكها بالحنو والتشجيع، إنما هو قد رأى فيدرا، فيدرا الآثمة، بكل فتنتها، نعومتها، ألبانيتها، المناطق التى كانت مستورة من جسدها كانت أشد فتنة وإثارة من تلك التى تعرت عن عمد يستهدفه بالإغواء فى قوة طاغية يتصدع

من لهيبها الجبل، أصابته نشوة رجولية متحدية.. مضت الوقائع فى سلاسة من وهج إلى وهج.. من خلل الخطر الضوئى الشاحب فى خلفيته الظلماء كان يذكر أن الستار قد نزل مرتين لإنهاء فصلين، وأن دوى التصفيق تتردد أصدأؤه بقوة، وأنه قد استسلم للماكير يصلح فى وجهه بعض خدوش من العرق، وأن طيفا نورانيا ينتمى إلى بنات الحور قد أحاطه من الخلف بذراعين من المرمر، فإذا برأسه قد استقر بين وسادتين على صدر يضخ العطر والحياة والجنة، وإذا بشفتين ساختين تطبعان على جبينه قبلة فيها من الامتتان والشكر أضعاف ما فيها من إعجاب وحب، إنها كاريمان شخصيا فانت عليه لكى تشد من أزره، قالت عيناها المنجلتان برموش مشرعة فى المرأة إنه لم يخذلها، ثم اختفت فى لمح البصر، بقى منها فى ذهنه شئ ومن بريق عينيها لم يكن رآه فيهما من قبل، إنه بريق الشبق الفاجر الفاجع، أنكون قد اندمجت فى حالة الدور بكل كيائها؟

إن هى إلا برهة قصيرة حتى رأى ذاك البريق شاخصا متاميا يتحداه بقوة حتى لقد التبس عليه الأمر تماما، ارتج، اتسع الخط الضوئى فى رأسه فانتبه إلى أنه قد صار فى قلب مشهد الغواية، فتح عينيه عن آخرهما فاخفى الخط الضوئى فغابت معه شخصيته الذاتية، كان بالفعل قد صار طيعا لينا بين يديها، صار فى قلب حضنها محاطا بذراعيها يتحسس خديه بخديها تصب فى أذنيه لهيب رغبة حقيقية يستحيل مقاومتها، تهمهم تغمغم ينضح صوتها شبقا، بريق عينيها يثبت بالدليل القاطع أنها ليست إلا امرأة ملتأثة بشهوة رعناء عارمة، فإذا هو قد انتقلت إليه حالة الشبق فى ردة فعل بنفس القوة، تعرج الخط الضوئى فى خلفيته صار حلزونيا مشرشرأ برعوس مشاعر تخزه فى جبينه تتبته إلا أن لحظة الشبق احتوتهما وصارت حقيقة فعلية تحت ضوء قرمزى باهت، وأن فيدرا نشوانة مغمضة العينين قد انصهرت فى حضنه، راح يتشبث بالخط الضوئى لعله يعرف كيف ينفصل عنها بالحركة التمثيلية المتفق عليها، إلا أنهما كانا معا فى حالة من البلل، وفيما هى تفتح عينيها فى الظلمة القرمزية لمع فيهما نظرة فيها القليل من اللوم والكثير من خجل مصطنع يعكس شدة التلذذ بما

حدث، لكنه لا يعرف كيف كان الجمهور فى حالة من الإعجاب لدرجة أن التصفيق الطويل أعطاهما فرصة كافية لاسترداد الرشد فى سلاسة ناعمة إلى أن انتهى العرض بنجاح صاعق.

عصر اليوم التالى استيقظ كالفاد الذاكرة نزل يتمشى فى وسط المدينة أكل رغيف الحواوشى، جلس على مقهى سفنكس الحميم فى شارع عماد الدين فى انتظار موعد افتتاح العرض العمومى. شرب عصير الليمون مع القهوة، جعل يستعيد عرض الليلة الماضية لعله يتذوق طعم النجاح فى أدائه ويرى كيف استطاع أن يلعب فى مواجهة غول تمثيلى مثل كاريمان.. بالفضاعة ما هذه الكآبة الزاحفة على صدره تخنقه؟ إنه ليس يستطعم شيئاً على الإطلاق، إنه لا يكاد يذكر شيئاً يبهجه.. نشف ريقه فجأة، أين اللذة الفنية التى كان يمنى نفسه بها؟ هل كان التصفيق له أم لها؟ ماذا يكاد يجزم أنه لم يمثل أمام نجمته الأولى كاريمان، لم يبق فى أعطافه فى مشاعره أى شئ من ذكرى الليلة الماضية سوى عطر امرأة شبيقة زلزلته حتى النخاع وأوقعته بالفعل فى الغواية، ضحك ساخراً من نفسه، نقض نفسه قائماً يجرى إلى مبنى المسرح.. وجدها فى انتظاره، احتضنته، قبلته فى شفثيه قبله خاطفة وجلة ثم همست: بعد العرض أنت معزوم على العشاء عندى احتقلاً بنجاحنا. نبرة الوعد الأنثوى الحريف هزت أعطافه بقدر ما أعقبها من شعور بالكآبة.. التصفيق هو الذى نبهه إلى أنه قد صار على خشبة المسرح ملتحمًا بالمشهد.. ثم إن التصفيق ما لبث حتى كف تماماً، حلت محله همهمات تشى بزمزقة رافضة بين الجمهور.. بالكارثة، ما الذى جرى لهما معاً؟ ما هذا الهبوط؟ ما أفضع ما يشعر به من سخف، اتسع الخط الأبيض فى خلفيته الذهنية فكأنه تعرض للعرى فجأة، سرعان ما انتبه إلى أنه طوال العرض كان مجرد رجل فتى عملاق وكانت هى مجرد امرأة شبيقة، شعر هو أن الفن صار أشبه بجرد يظهر فجأة ليختبئ وليس لهما من عمل سوى مطاردته للامساك به، إلى أن نزل ستار الختام فاندفع خارجاً قبل تحية الجمهور، اصطدم بالخرج أتيا يلطم خديه، ما إن رآه حتى صرخ فيه فى فجعية موجعة: زفت وقطران.

زفرت "كحكاية" وهي تفرك يدها
 في حجرها ناظرة إليه في
 ضراعة ليفك لها سر هذه العملية
 الغامضة التي حدثت، لكن عبد
 الجواد كان أكثر لهفة، سأل صراحة:
 "وايش بعد اللي عملته ده يا
 شيخ بسيونى؟".

فند المندل

فى

بلدنا إلى زمن قريب جداً كان الواحد منا إذا اعتراه شيء من الضيق النفسى والميل إلى التجهم والاسترخاء وعدم الرغبة فى أى عمل وصف الأهل والصحاب حالته بأنها "نفس" بكسر النون وتسكين الفاء والسين ومعناها أنه محسود، حينئذ يوصونه بالذهاب إلى الشيخ "بسيونى جردة" ليفتح له الكتاب والكتاب قد يكون القرآن الكريم، يأخذ الشيخ اسم الشخص واسم أمه فيجمع عدد حروفهما ويكون الناتج هو رقم الصفحة التى يجب أن يفتح عليها المصحف الشريف، ليكون ما احتوته من آيات أشبه بمرآة تنعكس عليها حالة الشخص وأوضاعه النفسية والمادية والروحية، وعن طريق التأويل والتفسير يستنبط الشيخ ما يجب أن ينصح به الشخص من كفارات وصلوات أو زكاة أو اعتذارات وما إلى ذلك من تصليح للسلوك وترميم للمناطق المخوخة داخل الشخص "المنفوس"، وقد يكون الكتاب واحداً من كتب الطب والكلمة المعروفة فى التراث العربى مثل كتاب الشفاء لابن سينا أو كتاب الحاوى فى الطب المداوى لأبى بكر الرازى، ليستنبط منه دواء لما يعانى به الشخص من وجع فى المفاصل وصداع مزمن أو ارتخاء أو ما إلى ذلك من أوجاع بدنية لها تأثير مباشر على الحالة النفسية وقد يكون الكتاب هو كتاب السحر الشهير "شمس المعارف الكبرى" يفتحه الشيخ ليستقى منه وصفة سحرية لفك المربوط أو لتقوية الباه أو لإبطال مفعول عمل سحرى بالحب أو بالكراهة، أو كيفية

الاستعانة بعفاريت من الجن في الوصول إلى الجناة والكشف عن مسروقات.

الشيخ "سيونى جردة" هو عمى لزم، نجح في تأمين القاعة الجوانية التي يلتقى فيها زبائنه من الباب الورانى لدارنا، الذى يفتح على شارع خلفى بعيد، لكنه لم يستطع تحقيق السرية بالنسبة لنا نحن عيال الدار كلهم لم يكن يضيق بنا، إنما يكتفى بزجرنا، وأحيانا بتحذيرنا من العبث بأى من هذه القنينات ففىها سموم قاتلة، ومن بهدلة الكتب حتى لا يزعل الله منا ونحن لا نقدر على زعله سبحانه وتعالى، ويوصينا بألا نسأل عما نراه أو نسمعه، ولا نحكى عنه لأى أحد وإلا عاكستنا العفاريت وطلعت لنا فى الليل وحرمتنا النوم، ولعله، على كبر سنه ووفرة حكمته التى يوزعها على الناس كان غافلا عن أن نهيه لنا عن فعل ما لا يريدنا أن نفعله إنما هو فى الواقع يحرضنا من طرف خفى على أن نفعله، على الأقل لنستوثق من صحة تهديداته التى يلقيها علينا بجدية رهيبة حيث تبرق عيناه الواسعتان فتكاد نرى فيهما شياطين وعفاريت تتقاذز وتلعب الكرة بأدمغتنا.

وذات صباح صبحونا على صوات وضجيج آتيين من آخر حارتنا الطويلة، بالتحديد من دار الحاجة كحكاية المطلة فى آخر الحارة على شارع داير الناحية، كعادة أهل بلدتنا صرنا بعد ثوان معدودة بلدة بأكملها تتجمع حول دار كحكاية، بعضهم يشمر عن ساعديه للمساعدة فى إطفاء حريق، بعضهم يتأهب للدخول بصدره بين المتعاركين يفصل بينهم، بعضهم يتوجس من صوت كلب عوى منذ قليل فوق سطح هذه الدار ينبئ عن جود عزرائيل فى البلدة ولا بد أنه أنهى مهمته فى دار "كحكاية"، بعضهم الأخير جاء لمجرد الوقوف على الخبر بدافع الفضول والولع بوقوع أحداث تبدد ملل ركود الحياة فى البلدة ما لبث الخبر حتى خرج من دهاليز الدار متطايرا فوق أكتاف الجموع فصار فى لمح البصر كحكاية شبه متكاملة، عروس عبد الجواد ابن كحكاية نط عليها الحرامى وهما فى سابع نومة فسرق ذهب العروس وفلوس الصباحية ومحفظة

العريس، دار كحكاية منط بالفعل لوجود هديم حواليتها يمكن الصعود فوقه، رجح الناس بادئ ذي بدء أن العملية تمت قبل أذان الفجر بقليل، وأن الفاعل وجد الأبواب كلها مفتوحة فلم يكن محتاجاً لأى عنف.

جاء العمدة، ثم جاءت المباحث ومن ورائها النيابة عابنوا، رفعوا بصمات، حققوا مع أهل الدار وجيرانهم ثم انصرفوا كأن شيئاً لم يكن، فكان لابد للمسروقين أن يرفعوا قضيتهم إلى الدائرة الأعلى والأوثق من كل الدوائر الحكومية، الدائرة التى لا تخيب فى أنظارهم، لديهم يقين متوارث من أن اللجوء إلى هذه الدائرة فيه على الأقل ضمان لمعرفة اسم السارق حتى وإن احتفظوا به ولم يتخذوا ضده أى إجراء، تلك هى دائرة عمى الشيخ "بسيونى جردة" وخدمها عفاريت من الجن يخضعهم لسلطان الكلمة، التعزيم، الأمرة المستعينة بالله وبرسله وأنبيائه سعيًا لعدالته سبحانه وتعالى وكشف اللثام عن الظالم الجانى.

أحيطت حركتهم بسرية شديدة، لم يشعر بها أحد سوانا نحن عيال الدار بعد صلاة العشاء نشاهد نساء ملثمات يدخلن قاعة الشيخ بسيونى، وقبل أن يجهز علينا الفضول يتضح لنا أنهم كحكاية وبناتها المتزوجات جنن كى يحلفن على المصحف الشريف بمعرفة الشيخ بأنهن لا شأن لهن من قريب أو بعيد بما حدث لأخيهن وعروسه بحلفانهن الذى أخذ هذه الصفة الشرعية الرسمية من شيخ حافظ يحق لهن أن يخرجهن الشيخ من دائرة الاتهام التى لن يعفى منها قريب أو حسيب أو نسيب. وفى ليلة تالية جاء عبد الجواد بأخيه الكبير المقيم فى عزة مجاورة وبأخيه الأصغر المقيم معه فى الدار، أكد ثلاثتهم أنهم طاهرون من الرجس وخارجون لتوهم من صلاة العشاء، ثم حلفوا على المصحف الشريف، أصر عبد الجواد على أن يبدأ بالحلفان ليدراً عن نفسه الشبهة من ناحية ويشجع أخويه على الحلفان من ناحية ثانية، وبهذا خرج ثلاثتهم من دائرة الاشتباه، بقى أهل الحارة كلهم وأنه لمن غير المعقول مطلقاً أن يستدعيهم أحد للحلفان لأنه ليس ثمة

من يجروُ على اتهام أحد منهم من الباب للطاق دونما دليل أو حتى شبهة اشتباه.. هكذا قال الشيخ "بسيونى جردة" ثم استدرك وكأنه يسأل نفسه: "فماذا يكون الحل إذن يا إخواننا؟"، ثم تلفت حواليه كأنه يكلم إخوانه الجن غير المرثيين إلا له وحده، مما جعل الرعب يتمشى فى وجوه القاعدين أمامه على مصطبة القاعة الجوانية، حيث لمبة الجاز نمرة خمسة الموضوعة فوق رف خشبى مدقوق فى الحائط تكافح الظلام بأنفاس لاهثة، القاعة من الأرض إلى السقف مدهونة بالهباب الأسود، أراها من خصائص الباب كسبورة المدرسة والضوء شخبطات بالطباشير الغامق البياض لا تستقر على حال، تأخذ أحيانا أشكال وجوه آدمية تميل على بعضها لتتهامس، وأحيانا أشكال حيوانات منبعجة الأفخاذ والظهور مفرطحة الرؤوس والأكتاف، وأحيانا شكل أكوام السباخ المتكومة أمام دارنا، نسمع كل شئ ونفهم ما يدور، نكتم أنفاسنا اللاهثة المضطربة من فرط غرابة ما نسمع ونرى..

عرفنا أن عمى الشيخ "بسيونى جردة" سيفتح لهم المندل، ومن بين أشكال المندل الكثيرة من الفنجان إلى القلة اختار لهم مندل الطين باعتباره - فيما قال - مندلا استدلاليا ناجعا.. قال عبد الجواد: "كيف؟" نزغ الشيخ ورقتين من قلب كراسة، طواهما ومزقهما إلى قصاصات صغيرة جدا كتلك التى توضع مع اليونيون والطوفى ومطبوع عليها كلمات لطيفة وحكم وأمثال. رص القصاصات فوق بعضها، ثم نادانى، قال: "تعرف النشعة تحت زير الماء؟ اذهب وهات منها جالوصا من الطين إن لم تجد اعجن التراب فى النشعة وهاته بسرعة". جئت له بما طلب، قال: "ضعه فى القصعة فوق الرمل الساخن".

وضعت فى جانب منها بعيدا عن النار الجاهزة دوما لامتناس مطر من البخور قال لعبد الجواد وأمه: "قولوا لى أسماء من تشبهون فيهم اسما اسما". أطرقا برأسيهما قليلا، راحت كحكاية وابنها يتبادلان إملاء الأسماء، والشيخ يكتب كل اسم فى قصاصة، ثم يطوى القصاصة فوق بعضها كحجاب فى حجم عقلة إصبع

طفل، ويقتطع من الطين بأطراف أصابعه قطعة، يدفن القصاصة فيها، يكورها كالبلية، يضمها في تلامس مع النار على حواف القصعة، إلى أن انتهى من الأسماء كلها، فمال بجذعه إلى الورا مَاداً ذراعاً على طوله، سحب صينية القل القديمة من تحت الكنب، نظفها بكم جلبابه، أمطر النار بالبخور، قرأ تعزيمة على الصينية، ثم دلق فيها كوزين من الماء النظيف، أضاف إليهما قطرة من زجاجة ماء الورد، مررها على سحائب البخور سبع مرات مصحوبات بقراءة عدية ياسين، وضعها على الأرض، نقل كرات الطين إليها، عدها الشيخ أربعين كرة، فتفاهل بالرقم خيراً، مما وشى بأن كحكاية وابنهما قد أمليا أسماء الحارة كلها بمن فيهم من أطفال. صارت صينية القل كحمام سباحة مصغر تطفو على سطحه عشرات الرؤوس السوداء، خيل إلى أن رؤوس أهل حارتنا كلهم قد قطعت وجرى بها إلى هذه المصيدة.

زفرت "كحكاية" وهي تفرك يدها في حجرها ناظرة إليه في ضراعة ليفك لها سر هذه العملية الغامضة التي حدثت، لكن عبد الجواد كان أكثر لهفة، سأله صراحة: "وايش بعد اللي عملته ده يا شيخ بسيونى؟".

حملق فيه الشيخ بسيونى بنظرة تفلق الحجر، خففها بإبتسامة عريضة تهدلت من تحتها لحيته الرمادية المهبية، قال منقلاً البصر بينهما، مشيراً بأصابعه إلى الصينية: "سأشتغل عليها بالتعزيم سبع ليال متتالية! إذا كان في كرة من هذه الكرات اسم السارق فإن الكرة تشق من تلقاء نفسها كالبرتقالة الفاسدة متخيلة عن الورقة المطوية بداخلها! فتعوم الورقة على سطح الماء فنمسك بها نفتحها ونقرأ الاسم المدون فيها فنكون قد عرفنا الجانى بإذن الله!". شعرت أن شعر رأسى يقطع، في حين تجمدت كحكاية وابنهما من الفزع.

بقينا جميعاً في صمت كثيف ضاغط كأن المفاريت قد حضرت بالفعل وبدأت في اعتقائنا في أماكننا. لكن الشيخ حين ناداني صرت في الحال أمامه، أشار إلى ساتر الحمام في ركن القاعة

المجاور للباب وهو عبارة عن نصف جدار مغفوق بالأسمنت، قال: "أرفع هذه الصينية ضعتها فوق ساتر الحمام وغطها بأى ماعون"، إلا أن عبد الجواد خشى أن تقع منى فيدخل الشؤم فى السكة الماشية، فقام بنفسه ووضعها بحرص واطمأن إلى توازنها فى قعدتها ثم غطاها بلوح من الأبلكاش وجده فوق الساتر.

فى صبيحة اليوم التالى كنت أول من تسلل - وعمى مستغرق فى النوم - فكشفت الغطاء فوجدت الكريات الطينية السوداء غاطسة تحت الماء لم يحدث لأى منها أى تغيير. بعد يومين كان الخبر قد أصبح معروفًا. نسوان حارتنا يدخلون دارنا فى اليوم الواحد عشرات المرات، ففى دارنا دويرة للخبيز يشتعل الفرن فيها كل يوم، وحين يتجمعن أمام الفرن لمساعدة بعضهن البعض فى الخبيز فيندمجن فى تقريص وتبيطيط وإحماء، كن يتجنبن الخوض فى موضوع السرقة حتى لا تفلط الواحدة منهن بكلمة خائبة قد تجر عليها وعلى أهلها وجع دماغ لا ينتهى.. إلا صباح زوج الباشترجى الذى يسكن فى دار الغرابلى فى وسط حارتنا تقريبا، هى امرأة نصف بندرية من بلدة من ضواحي مدينة طنطا، خفيفة الظل، جميلة رشيقة القوام فارعة، طيبة، يحبها الجميع ويعاملونها برقة وعطف باعتبارها غريبة والغريب مكروم لأجل النبى، لا يبدو عليها التقدم فى العمر أبدا، دائما محتفظة بنضارتها بشكل يوغر صدور الرجال ضد زوجاتهم، تتميز بالجرأة والأريحية والوجه المكشوف، تساعد زوجها على المعاش بضرب الحقن، والتغيير على الجروح، وإسعاف من يصيبه صداع أو مغص أو نزلة برد، وتكون أول من يحضر إذا علمت أن امرأة من نسوان الحارة تلد، كانت صباح هى الوحيدة المهمومة بأمر السرقة، تستنزل اللعنات على من فعلها وتطلب فضحه وكسر رقبته جزاء ما فعله بهذه العروس الغلبانة، أكثر من مرة اقتحمت على الشيخ بسيونى خلوته تدعو له أن يوفقه الله فى مسعاه الطيب، تلف وتدور بصنعة لطافة تستدرجه من خلال المرح لعلها تعرف منه شيئا عن خبر السارق يشفى غليلها، ولكن الشيخ بسيونى يغلوش عليها ويهرب من جمالها المبذول إلى

التسبيح والاستغفار، إلا أنها ضبطته مرة وهو يكشف الغطاء عن الصينية ويتأمل فى الكريات الطينية، فبدأ عليها الارتياح من هذه اللعبة الغامضة، لحقت بى فى الدهاليز، أقعت أمامى أخذتنى فى حضنها، سألتنى إن كنت أعرف ما سر هذه الكريات الطينية السوداء العائمة فى صينية القل.. فاندفعت بلذة فائقة أحكى لها كل شئ بالتفصيل، وقلت لها إن أسماء أهل الحارة كلهم فى قلب الكريات فإذا كان السارق منهم فإن كرتة سوف تنشق وتخرج الورقة من قلبها فيقرؤها عمى الشيخ بسيونى فيعرف منها اسم السارق.. لحظتها اتسعت عيناها كسردينين مخيفين، ثم أفلتتنى، هرولت أنا إلى بوابة الدار بحثاً عن العيال لأحكى لهم ما حدث، لكننى تذكرت تهديدات عمى فندمت واغتظت من صباح فرجعت أبحث عنها لأقول لها: "هيه وضحكت عليكى"، فلم أجدها، إنما لمحت طرف ثوبها بارزا من خلال باب قاعة الشيخ الموارب. دفعت الباب ودخلت، لأفاجأ بها وهى بالكاد ترفع الغطاء عن الصينية ثم تمد أطراف أصابعها لتعبت بالكريات، شددتها من جلبابها، ربت على كتفى بيد مبلة مرتعشة ثم خرجت، طلعت فوق المصطبة ونظرت فى الصينية فوجدت إحدى الكريات مضغوطة والورقة المطوية عائمة، فأيقنت بأنها هى التى فعضتها لسبب كاد غموضه يبكىنى، غير أننى من شدة الخوف تكتمت ما حدث كأنه لم يحدث. تلك كانت الليلة السابعة والأخيرة، بعد صلاة العشاء صرخنا جميعاً صرخة مكتومة حينما قرأ عمى اسم الورقة العائمة: صباح!

ذلك كان لغزا من أعقد ألغاز طفولتى، كيف يحق الله أن تمد صباح يدها بشكل عشوائى لتفحص إحدى الكريات فإذا بهذه الكرية بالذات هى التى كانت تحمل اسمها؟ غير أن ذهولى أمام هذا التوافق المستحيل تضاعف تماما أمام الذهول الأكبر، يوم بادر عبد الجواد بإبلاغ الباحث بشكوكه فى شخصية صباح فتم القبض عليها فإذا هى لا تصمد أمام النيابة لبضع دقائق فتعترف بجريمتها بالتفصيل، وتضيف إلى أساطير وأدبيات بلدتنا العتيقة أم العجائب أعجوبة هيات أن تفهمها العقول، أو تنكرها.

كان متخفياً في الشجر حينما
 شاهدها مثل موكب من الضوء
 تقترب من الشرفة في ثوب منزلي
 رهيف مكشوف الصدر والظهر
 والكفين والذراعين، أه يابنت
 الفرطوس، حقاً! المال والعز
 والصحة لا تزال شابة فتية.

شفاء الغل!

وهو خارج من بوابة سجن القلعة صده الضوء فأرغمه على التراجع برأسه مغمضا عينيه ثم أحنى رأسه وعبر العتبة إلى الخلاء. لم يكن ثمة من أحد في انتظاره، صار يتلفت حواليه يدقق النظر في كل الوجوه التي تلتقيه في الشارع لعله يتعرف على أحد أو يتعرف أحد عليه. سقطت من حنكه ضحكة كفتات الخبز الناشف: ومن ذا الذي سيتعرف عليك يا شعبان يا قرد بعد أن بهتت ملامحك! إن ابنتك. وهي كل ما لك في هذه الدنيا. لن تتعرف عليك، فيوم تركتها وهي في الثالثة من عمرها كانت سنك وقتها عشرين عاما وكنت ولدا حليوة شعرك مسبب تركب الموتوسيكل الهارلي توزع به الصنف على زبائنك المحترمين الآخر نقاوة! أما الآن فقد تجاوزت الأربعين وشالت ملامحك حمولات من القشف وغبار حجارة أبي زعل! حتى سجن القلعة الذي جىء بك إليه قبل الإفراج بشهرين لم تجد فيه من يخدمك بتوصيل الخبر إلى ابنتك لعلها تضع في عينيها حصوة ملح وتأتي لملاقاتك!

على كل حال هو الآن في حيه، في مسقط رأسه ومرتع صباه وشبابه، مع ذلك يبدو حي الصليبية كأنه جديد عليه، الدنيا كلها تغيرت وليس هو وحده، أبدا لم يكن هذا الشارع ينتهي بكويرى عند السيدة عائشة، ما كل هذا الزحام؟ هل قامت القيامة؟! الرعب يطارده وهو

ينسرب بين أرتال السيارات كأنه البهلوان ليفوت من تحت الكوبرى واصلا إلى قهوته القديمة فوق تلة عالية كان يحب الجلوس على رصيفها المرتفع يستمتع بالعصاري مع صحابه من أبناء حى الإمام الشافعى. فى هذا الحى ولد لأب تبرى وأم تطاهر الفتيات، وفيه دفنت أمه ومن ورائها أبوه وفيه داهمته الشرطة فى ليلة سوداء: أبوه التبرى كان يخزن الحشيش للمهربين داخل فسقيات المقابر الواقعة تحت إشرافه، وتلك عملية تكفيه لأن يعيش مبسوطا إلا أن شعبان كان طموحا يتطلع إلى شقة فى عمارة حديثة فخمة وسيارة مرسيدس وثلاجات وتليفزيونات ومصايف مثلما يرى على تجار الصنف المشهورين، وهكذا ترك مهمة التخزين لأبيه وانشغل هو فى البيع والتوزيع ولكن بطريقة مبتكرة ونظيفة: كون دائرة من الزبائن الذين لا تسمح لهم مراكزهم بدخول أوكار بيع الحشيش، يعرفونه ببعضهم، يذهب إليهم بالبضاعة لحد عندهم فى أكياس هاكهة أو علب حلوى. جرت الفلوس فى يديه بغزارة، تزوج، اشترى شقة لا بأس بها فى بيت عتيق بحى الإمام، سرعان ما حملت زوجته حميدة المزين وأنجبت بنتا تفاعل بها فسمها أم السعد، فعلى قدومها اشترى الموتوسيكل الهارلى. بفضل تودكه وشطارته ربح الثلاثة هو والمهرب والخازن، ومن شدة حبه لحمدية المزين جعل منها أمينا للصندوق، كل ما يكسبه موضوع تحت يدها تعرف كيف تخفيه بعيدا عن نطاق تفتيش البوليس وأعين الحاسدين، حتى فلوس أبيه بعد موت أمه باتت تحت يدها، وكانت هى مصدر ثقة منهما ولكن "جز على أنيابه فى غضب وعصر كوب الشاي فى قبضته حتى كاد يفثته" لقد كان مفضلا بمعنى الكلمة: كيف نسى أن حمدية المزين كانت تعيش قصة حب مشبوب مع العريجي سمير السنى الذى باع الكارو بحصانها واشترى نصف نقل بالتقسيط يلقط بها رزقه فى الأسواق؟ كيف من فرحته بموافقة المزين على تزويجه من ابنته أندب كالرطل ومشى فى الموضوع رافضا تصديق الشائعات بأن سمير السنى أخذ غرضه منها وتخلى عنها؟ كيف صدق أن حامد المزين اللثيم الخنيس رفض تزويجها من السنى لأنه لا يملك مهرها ولا يقدر على شراء شقة لها؟ الواقع أن سمير السنى فعلا لم يكن

يملك شيئاً ولا يستطيع مغادرة الحوش الذى يسكنه أباً عن جد حيث يضم الحوش مقبرة واحد ممن قرأ أسماءهم فى كتاب المطالعة فى المدرسة الابتدائية قبل أن يزوغ منها نهائياً، وصحيح أنه حوش أشبه بالقصر لكنه فى النهاية تربة، وشكله معفن، عليه ريبة وكآبة فى الظهيرة فما بالك فى الليل؟ وفعلًا لم يكن لحمدية أجمل بنات حى الإمام أن تدخل عروساً فيه فكلام حامد المزين أيامها كان يؤكد الواقع، حمدية هى الأخرى أكدت له أن قصة حبها لسمير السنى لم تكن سوى شائعة، هو وحده المسئول عن نشرها بين العريجية وما يذاع فى موقف العريجية تحمله العجلات إلى الأسواق، وقد صدقها واثمتها على حياته بعد أن أنجبت له ابنته التى استبشر بها وأحبها إلى أن جاءت تلك الليلة السوداء الحالكة: كانت المآذن على وشك أن تكبر لصلاة الفجر، وثلاثتهم: هو والمهرب وأبوه فى داخل فسقية المقبرة فى لحظة استلام بضاعة وتستيفها فى صفائح وكراتين معتمدين على التحسس والتلامس فى ظلام دامس، وإذا بشبح فاتح السواد قليلاً ينحنى على فوهة المقبرة من فوق وينادى بهمس كالصحیح: "شعبان.. شعبان يا قرد" ارتجفت قلوبهم وضع شعبان يده على خنجره المخبوء تحت إبطه وسحب المهرب طبنجته وراح أبوه يحفر الأرض بيديه ليسحب البندقية العتيقة، صعد شعبان درجتين على السلم الحديدى فتعرف على قميص الأسطى سميير السنى ولحيته السنية القصيرة وشاربه المنكفئ داخل شفثيه بشكل مقرف: "مالك يا زفت الطين إنت عايز منى إيه! وإيه اللى عرفك إنى هنا أصلاً؟" الفاجر الباجس قال: "شفتك بالصدفة وانت جاى هنا جيت أنبهك إن البوليس موجود فى المنطقة فخلى بالك" من غيظه شيع له بونية قوية عوجت ضبته "وانت مال ديك أمك؟" وقف يتألم من الضربة "خير تعمل شر تلقى" مشى مهرولا حتى اختفى، فكر شعبان فى إغلاق المقبرة بالمجاديل للتمويه مؤقتاً، لكن الدنيا ارتجت حوالبه فجأة بمدافع رشاشة وكشافات وعسكر وضابط يصيح أمراً "خليك مطرحك" إلا أن شعبان قد ظهر بكامله رافعا ذراعيه علامة التسليم، فتشوه ثم كلبشوه ودفعوا به إلى البوكس فورد الراكن فى المنحنى

الجانبى، أبوه والمهرب لم يستجيبا لأوامر الضابط ولم ينصتا لتهديده بأنه سوف يضرب فى المبيان فأطلق بضع رصاصات فى فوهة المقبرة، فأتته من الفسقية رصاصه عشوائية اخترقت كتفه اليسرى فارتمتى على الأرض فانهال رصاص المدافع على المقبرة من كل ناحية، جاوبتها رصاصات من داخل الفسقية أصابت جنديين، فلما كف الرصاص نزلوا بالكشافات إلى الفسقية ليجدوا جثتى الأب والمهرب ويجوارهما صفقة حشيش وأفيون ضخمة.. وإذن فالأسطى سمير السنى لم يكن إلا مرشداً خسيساً، هذا ما تأكد منه شعبان القرد وهو فى قلب المحنة.. حكمت المحكمة على شعبان القرد بالأشغال الشاقة المؤبدة.. فى السجن أوعز إليه المجرىون المخريشون بأن زوجه حمدية هى أس البلاء ومذبذبة الخيانة من أساسها ما فى ذلك شك.. بعد صدور الحكم بأشهر قليلة تقدمت حمدية المزين بطلب رسمى للتعجيل بالطلاق بناء على حكم المحكمة، فحصلت عليه طبعاً الخسيصة بنت الخسيس نالت كل أغراضها وها هى ذى تنعم فى خيريه مع حبيبها القديم.. دلق الشاى فى جوفه، دمدم ولكن لا لا نعيم لهما بعد اليوم.

سخن دمه إلى حد الضوران، فالكل هنا لا يعرفه بل لا يريد أن يعرفه، رجال عجائز كثار دخلوا عليه واستطاع أن يتعرف عليهم ولكنه أمسك نفسه حتى يرى إن كان أحدهم سيتذكره أم لا، غير أن الواحد منهم يحملق فيه مأخوذاً لبرهه، أو متشككا أو متصنعاً عدم المفاجأة بعضهم كان يكاد وجهه يتهلل هاتفا: شعبان القرد إلا أنه ما يلبث حتى يغير وجهه وسكته. ضجر وغضب، تحسس تحويشة عمره فى ورشة السجن التى تعلم فيها صنعة لم يفلح فى تعلمها وهو طفل: نجارة الكراسى. وقف، حاسب الجرسون ومشى يقاوم الرغبة فى البكاء: على الدرج التقاه صاحب المقهى فراح يتطلع إليه فى فضول يشوبه توجس مرعوش، لقد طعن فى السن ولم تعد صحته تحتمل المفاجآت غير السارة تبسم شعبان "مش فاكرنى يا سعداوى" تفككت ملامح الرجل واضطربت، هتف بفرحة تلقائية "شعبان القرد؟ ما حدش عمره قال لى يا سعداوى غيره"، ثم استدرك ضابطاً ملامحه مسترداً أنفاسه، أحاط شعبان بذراعه يدفع به إلى الصعود "حمد الله على

السلامة يا قرد اطلع اشرب شاي". قال شعبان في سأم "عايز أروح أنام لى ساعتين" انفتح الحنك الأهتمام الشبيه بحنك ديناصور تيمس "تروح فين؟ اطلع اطلع"، فطلع شعبان متوجسا مشتاقاً لسماع الأخبار حتى وإن كانت مصائب سوداء فماذا يكون أسود مما هو فيه الآن؟ لكن سعداوى دمر البقية الباقية من روحه المعنوية بغير رحمة ربما دون أن يقصد، فمع الشاي الذى جرعه، وبوسة الأفيون التى خرجت معه من السجن فاققسمها معه، تجرع بحرا من المرارة: حمدية المزين باعت الشقة التى هى من حقها باعتبارها حاضنة، وطبعاً تزوجت من سمير السنى، سمير العريجي أصبح الآن صاحب أسطول من سيارات النقل، وعضوا بمجلس الشعب يسكن فى قصر بحديقة بناه فى جبل المقطم، ورغم أنه مزواج وكل يوم والثانى له سكرتيرة جديدة يتزوجها ثم يطلقها بقرشين أو بشقة أو بسيارة فإن حمدية المزين لم تقرب فى جمالها بل زادها العز والفخضة صحة وشباباً وجمالاً، وأنها كثيراً ما تزور المنطقة لتصلى فى الإمام الشافعى مرة وفى السيدة عائشة مرة وهكذا فى السيدة نفيسة والسيدة زينب والحسين، وأن سمير السنى لم ينبج إذ إن حيواناته المتوبة بعيد عنك ميتة، لكنه استعاض عن الخلفة بإخوته السبعة الذين يرتعون فى معيته ويمسكون بمفاتيح كل شىء. سكت المعلم سعداوى بعد إذ لم يعد لديه ما يستحق أن يحكيه لشعبان القرد، إلا أنه برهة نظر إليه فى دهشة مستدركا "ما سألتيش يعنى عن بنتك أم السعد" هتف شعبان فى ضراعة "الحقنى الله لا يسيئك قول كل اللى تعرفه عنها" قال سعداوى "كل خير أم السعد وهى فعلاً أم السعد دى يا سيدى اتجوزت وهى صغيرة واحد من دى غنى جداً وعائشة هناك معاه ومخلفة صبيان وبنات ربنا يخلى" عندئذ بكى شعبان، تركه سعداوى يزيح عن صدره جبال الدموع، فى النهاية أخذ شعبان وصفة العنوان رسمها فى دماغه بدقة خرج إلى الشارع هائماً لا يدري أين يذهب.

٢

ثلاثة أشهر أمضاها متجولاً يبحث عن مكان يبيت فيه من لوكاندات السيدة زينب وكلوت بك إلى المقاهى الساهرة للصباح إلى

دلك فى حدائق عامة. نفدت فلوسه. كل تجار المخدرات الذين زارهم
تهربوا من لقائه بنصيحة مسمومة ينقلها إليه رجالهم "اتدارى شويه"
صغارهم كانوا يعطفون عليه، بمائة جنيه، بجلباب جديد، بحذاء،
قطعة أفيون، حجرين حشيش، واضعين فى اعتبارهم أنه قد يسترزق
منها لكنه سئم، تمنى لو يعود إلى السجن من جديد، إن الحياة خارجه
لم تعد تلائمه، ليس من مكان يرحب به ويطمئن إليه سوى قهوة
سعداوى، فيها يكون قريباً من جبل المقطم لعله يرى حمديّة المزين فى
إحدى زياراتها للإمام، يسرح خياله فى كيفية الوصول إليها والتفاهم
معها حول أمواله وأموال أبيه التى فى ذمتها، إنه لا شأن له بسمير
السنى، لقد أصبح الآن يخشاه بعد إذ أصبح قوياً بماله ومجلس شعبه
وإخوته وعماله، إنهم يمكن أن يدهقوه حياً.. ولكن ماذا يكون الأمر لو
أن حمديّة المزين أنكرت أن له فى ذمتها أموالاً أقل ما يمكن أن تقوله
إنها قد ربت له ابنته بأضعاف ما تركه من مال، وهل كان ماله سيبقى
إلى اليوم وهناك ابنة من صلبه يلزمها أكل وشرب وكسوة وعلاج
ومصاريف مدارس طوال خمسة وعشرين عاماً؟ شعر بإحباط شديد،
إلا أنه لم يسلم بالهزيمة إنما جعل يفكر فى دخلة ودية، ولكن كيف
وبواسطة من؟ كان قد اعتاد التسكع حول القصر حتى درسه من جميع
اتجاهاته بحيل وألعيب تعلمها من السجن، عرف كيف يتودد إلى
البواب ويصادقه، واكتشف نقطة ضعفه.. إنها الأفيونة التى تعينه على
السهر وتبث فيه النشاط، من حسن حظه أن عمران البواب كان
وحيداً، ترك عياله لمدارسهم فى سوهاج وأقام بمفرده هنا. كل ما كان
يصل إلى يد شعبان القرد من نفحات الأفيون والحشيش كان يقتسمها
مع عمران البواب حتى قام الأنس بينهما فى عصوريات كثيرة فى
حجرتهم المنزوية فى دروة بحذاء البوابة، يأكل شعبان وينام إذا أراد، فى
المقابل لا بأس من مساعدته فى شغله، يذهب عمران إلى مشاوير
أسياده فيمسك شعبان القرد بالخرطوم ويسقى الزرع أو يقطع الأشجار
بالمقص، كل ذلك وهو يتحين الفرص لرؤية حمديّة المزين أو حمديّة
هانم كما يصفها عمران.

كان مضغوط الأعصاب بسبب تكرهه فى عمامة صعيدية واسم

مستعار، وكانت الكآبة تقبض على صدره تعصره بقسوة وهو يرى هذا النعيم الذي تعيشه حمديّة في مقابل الشقاء الذي عاشه، يشعر أنه كلما اقترب من مكانها ابتعدت عنه أكثر حتى صارت كالأمل المستحيل، وكلما يثس من رؤيتها أكله الحقد عليها بضراوة.. إلى أن رآها فجأة دونما توقع. كان متخفياً في الشجر حينما شاهدها مثل موكب من الضوء تقترب من الشرفة في ثوب منزلي رهيف مكشوف الصدر والظهر والكتفين والذراعين، آه يابنت الفرطوس، حقاً! المال والعز والصحة لا تزال شابة فتية: نفس الوجه لم يتغير إلا إلى الأحسن! نفس الذراعين والكتفين وحردة الخصر والمؤخرة الدائرية المقبية.

ارتكنت بكوعها على حافة الشرفة راحت تنظر نحوه في استرابة، ثم صاحت "مين اللى واقف هناك؟" نفس صوتها الحاد، صاحت "عمران"، فلم يرد أحد فهتفت بغضب "إنت يا حيوان ياللى هناك" استدارت، اختفت في الداخل، فبسرعة انتقل شعبان زحف تحت امتداد اللبالب الكثيف المتلف حول أسلاك السور رآها عائدة وقد طرحت على كتفها شالا، جاءت إلى الشجر، وقفت حيث كان يقف وكانت شمس الأصيل قد انفقشت فوق رأسها فصبغت وجهها بالدم وعطلت عينيها عن الرؤية، لكنها راحت تردد "عجائب ده انت حرامي فعلاً" ثم هتفت في فزع: "يا زفت الطين يا عمران" فما درت إلا وشعبان القرد قد نط من تحت اللبالب وانقض عليها بالمطواة، طعنها في بطنها، في قلبها، في رقبتها، في كتفها. كانت عمامته قد شبكت في السلك فانفكت وظهر وجهه الحقيقي، وكانت صرخات القتيلة قد رجت الدنيا كلها في الحال امتلأت الحديقة برجال ونساء وأطفال، برزت من بينهم امرأة في الخمسينيات من عمرها لا تزال مشدودة الحيل، كانت تلطم خديها، فيما الجميع في ذهول، تقدمت من شعبان الواقف ممسكا بالسكين مبرقشاً بالدم. اتسعت عيناها وهي تحملق في وجهه، صرخت من قلبها المشروخ "شعبان؟ شعبان القرد؟ قتلت بنتك يا حيوان؟" حاولت أن تطبق في خناقه لكنها وقعت مغشياً عليها.. عندئذ تهاوى شعبان كالجدار بجوارها والسكين مغروس في قلبه.

باظ الولد فى المدرسة المصرية،
 فالحقه أبوه بالأجنبية، فباظت
 الأجنبية، عجزت عن كسر غروره
 وبلطجته فضلا عن غبائه وتبلده،
 كان لا يفعل أى شىء فى حياته، فكل
 شىء هناك من يفعله له حتى لبس
 الهدوم وخلعها حتى غسل
 وجهه وتسريح شعره.

حدوتة قديمة

يحكى أنه فى سالف العصر والأوان كان يوجد فى مصر المحروسة تاجر من مساتير الناس كانت له قصة كفاح فى غاية العجب لو كتبت بماء الذهب على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر، جمع ثروته الكبيرة من كده وعرقه وأسفاره الطويلة إلى الأسواق فى أقرب البلدان وأبعدها، فى البداية كان يحمل خرجا على كتفه يضع فى جرابيه المتقابلين كل بضاعته من أصناف العطارة، يلف بها شوارع الضواحي والقرى المجاورة ينادى بصوت منغوم ممراح: "معايا الشطة والكمون والفكك والفكوك والقرفة والينسون والكزبرة والخلنجان والزعتر واللبان وعين العفريت والشبة والفسوخ لطرده الجان والحنة الحجازى يا عرايسنا العزازى! ببركة السيدة والحسين والإمام وآل بيت النبى الكرام! الناس فى جميع القرى والأحياء ينجذبون إلى ندائه بنبرته الطروب المرححة التى تضى على أصناف بضاعته فخامة تغرى الناس بالإقبال على شرائها لمجرد استكشاف كنهها أما النساء فى كل مكان، وبخاصة فى القرى فإنهن ينتظرنه بشغف وقد يسألن بعضهن بعضا عنه إذا طالت غيبته، فما أن يسمعن صوت ندائه الحميم تتردد أصداؤه فى الحوارى المجاورة حتى تنتبه كل واحدة فتروح بسرعة تراجع العطارة الناقصة فى بيتها وبخاصة الفلفل الأسود والكمون والشطة والبهارات بأنواعها ثم العطارة الطبية كالتوتياء والسلمكة والتليو وغير ذلك.

الشراء آنذاك ليس شرطاً أن يتم مقابل فلوس، إذ ليس فى أيدي الفلاحين وفقراء الحضر فلوس طوال الوقت اللهم إلا فى مواسم الحصاد والعمل، عم بيومى مثله مثل جميع الباعة الجائلين فى القرى وحوارى المدن الصغيرة يبيع بالمقايضة، بعدة كيزان من الذرة، عدة بيضات، حفنة قمح، كوبة ملائنة بالأرز الأبيض، طاجن لبن، أحياناً بضعة أرغفة وعدة خرطاط من الجبن القريش أو ملء عيار من الزبد أو السمن البلدى، كله ماشى، يتربح أو يقضى أمام الدار حيث تقضى أمامه الزبونة، يفتح أحقاقا وعلبا من الصفيح وقتينات من الزجاج وأكياسا من قماش، يأخذ من هذه أو من تلك المقدار الذى يريد بأطراف أصابعه إن كان الصنف خرزا أو كتلة يقطع منها، فإن كان الصنف مسحوقا أو سفوفا اغترف منه بمغراف صغير حيث لكل صنف مغرافه الخاص به داخل صرته الخاصة، يضع المقدار المطلوب فى ورقة من كراسة قديمة أو من ورق الجرائد ويلف الورقة بصنعة وحرفة حيث تتدرج أطرافها المطوية فوق بعضها فتتداخل فى بعضها بإحكام، ولكن لا يكتفى بذلك بل يسحب بكرة الخيط، أو الدويارة حسب حجم اللفة، ويطوق اللفة بالخيط من جميع الجهات يكسرك عليها بعقدة أو عقدتين ثم يقطع الخيط.

لفة العطار ماركة مسجلة معروفة للجميع بمنظرها الحريف فى الكسكرة الخيطية إن رآها أحد صدق فى الحال أن هذا الصنف أو ذاك اشترى من العطار لا من أحد آخر، يعود عم بيومى آخر اليوم - شأن كل بائع سريح - وقد تخفف من خرج البضاعة لكنه راح ينوء تحت نقل خرج الغلة التى باع بها بضاعته، ولسوف يبيع ما تجمع منها لتجار الحبوب ويحتفظ بما يحتاجه بيته من غموس وإدام وخبز.

لكل مجتهد نصيب ما فى ذلك شك.. بعد حمل الخرج على الكتف أصبح عند عم بيومى حمار عفى رهوان استطاع بفضله أن يعود للمبيت فى حوضن زوجه مهما ابتعد، ساعده الحمار على

المرواح إلى أسواق البلدان البعيدة حتى ولو اضطره ذلك إلى المبيت ليلة أو بعض ليلة في بلدة السوق، رواج الأسواق طور حماره إلى بغلة، ثم أصبحت البغلة قافلة صغيرة لكنها متخمة بالبضائع يتعيش من ورائها سياس وعمال بيع وحمالون وحراس ولأنه رجل أمين غير جشع ويعرف الله ويتقيه في بيعه وشرائه ومودته مع الناس كبيرهم وصغيرهم فإن الله قد بارك له في تعبته وشقائه فافتتح محلاً في حي الحمزاوى يقع على ناصيتين مهمتين: الغورية وشارع الأزهر، وله إلى ذلك أربعة أبواب وبدروم تحت الأرض بحجم العمارة جاءه على الطبطاب كمخزن للبضائع، وأصبح عم ييومي يسافر بنفسه إلى الهند والباكستان والخليج العربي لشراء البضائع النادرة التي عرف أسماءها من كتب قديمة كان يقرأها منذ أن غوى هذه المهنة المليئة بالعلم والحكمة وبفضلها عاش في نعيم عوضه عن سنوات الشقاء، وحج مع زوجه إلى بيت الله عدة مرات.

شيء واحد بات يقلق راحة الحاج ييومي وزوجه ذلك أن الله الذى أعطاه كل هذا النعيم صن عليه بالخلفة سنوات الشباب كلها ثم صالحه على كبر بعد التقدم الطبى فرزقه بولد بات قره عينه، يسقيه الشهد بملقعة ذهبية، يملأ حياته باللعب والهدايا الثمينة، كل شيء جميل يصادفه في الحياة يشتريه له، حتى نشأ الولد رخوا كالأنثى، اعتاد الرفاهية الزائدة عن الحد، بات يشعر بتميزه الصارخ بين جميع أقرانه في حي الحلمية الجديدة الذى كان من حظه أن ولد بين ربوعه منذ أن ودع أبوه مرحلة الشقاء وانتقل من حي الحنفى إلى الجمالية، ومنها إلى الحلمية الجديدة في بيت محندق بحديقة محندقة بناه وفي مخططه أن ينعم به ابنه مستقبلاً.

باط الولد في المدرسة المصرية، فالحقه أبوه بالأجنبية، فباظت الأجنبية، عجزت عن كسر غروره وبلطجته فضلاً عن غيائه وتبلده، كان لا يفعل أى شيء في حياته، فكل شيء هناك من يفعله له حتى لبس الهدوم وخلعها حتى غسل وجهه وتسريح شعره، فلما طردته

المدارس جىء له بالمدرسين فى البيت من كل التخصصات لعله يفلح فى الحصول ولو على بكالوريا أو حتى الابتدائية ليكون إنسانا صالحا لإدارة حياته على الأقل، ولكن عبثا ضاعت كل الدروس، كان يستدرج المدرسين إلى العبث والتهريج ويفقد عليهم من نعيم البيت حتى وجدوا أن ساعات دروسهم أوقات من المرح مدفوعة الأجر فأخذوا الولد على هواه إلى أن تجاوز عدد مرات الرسوب فانصرفوا عنه وانصرف هو عن كابوس الدراسة، بقى فحلا غبيا كالحلوف يحتاج لنهر من الفلوس ينفقها على نزواته التافهة الخرقاء، كل يوم والثانى عامل مشكلة، مع الخادمة، مع الغسالة، مع بنت الجيران، مع واحدة ماشية فى حالها، كل يوم والثانى رايح السينما جاي من السينما، الحاج بيومى لم يحتمل ميلة البخت هذه، جاءه مرض السكر، لكنه وهو الرجل القوى المكافح كان يتحسر على مستقبل ثروته، فإذا كان وريثه الوحيد معتوها يبعتر فيها وهو بعد لم يتعد الخمسة عشر عاما من عمره فماذا سيفعل حينما يصير رجلا تلعب بعقله الخمر والنساء؟ القوى قوى والكبير كبير ولو على حساب مشاعره وقلبه بل وفلذة كبده، لقد استخار ربه واستفتى قلبه عقب صلاة الفجر، فاقترع بأن هذا الولد هو عمله السيئ الذى لابد أن يكون ارتكبه ذات يون دون أن يدري، وهكذا تقبل قدره ونصيبه، قرر أن يعمل بكل وسيلة قانونية لحماية ثروته من جنونه وعبثه ووقفها على مشاريع خيرية تتولاها وزارة الأوقاف، قرر كذلك - من باب إبراء الذمة - أن يكون شديد القسوة فى تأديب هذا الولد، سيؤدبه بقوة وإصرار سنوات الشقاء التى جالها فى الشوارع والقرى بالخروج فوق كتفيه كحمار السباح، لن يمكنه من ملهم واحد من ثروته التى يثق تمام الثقة أنها حلال فى حلال، إن ثقته فى شرف ثروته ونظافتها أقوى من ثقته فى أن يكون هذا الولد من صلبه فعلا برغم يقينه من شرف زوجه، فإن كان فى صلبه بذرة من حرام أنبتت جنين هذا الولد فسوف يسحقها إن عجز عن تقويم اعوجاجها.

فى صبيحة ذلك اليوم ناداه قبل خروجه إلى المتجر، دفعه برفق خارج باب البيت، بهدوء شديد قال له: "يا ولد لقد رببتك فلم تثمر فيك تربيتى، وأنا لا أحب الفسدة فى بيتى لقد أن الأوان لتعتمد على نفسك، هذا البيت لا مكان لك فيه بعد اليوم"، ثم نادى زوجه فجاءت تجرى، فزار فيها: "يا امرأة أنت طالق ثلاثا إن فتحت الباب لهذا الولد أو أعطيته نقودا أو ملابس"، ما كادت تفتح فمها بصيحة استنكار حتى رفع ذراعه وهوى بها فوق صدغها بحقد نفس فيه عن اعتقاده بأنها المسئولة عن تدليل هذا الولد وإفساده، الولية داخت، وقعت على العتبة، لم يعبأ بها، الولد ارتعب إذ يرى أمامه وحشا ضاريا لا يمت للحاج بيومى بصلة، فى اللحظة التى قرر فيها الجرى من أمامه كانت ذراع أبيه قد غافلته وهوت فوق صدغه بصفعة مدوية جعلته يلف حول نفسه ثم يجرى مفادرا الحى بأكمله. طوال عدة أسابيع كان الحاج بيومى يعرف من طرف خفى أن الولية تتصل بابنها وتمده بالفلوس وبالثياب فى بيت خالتها فى حى النبوية، فتجاهل الأمر على أن الولية ساقط عليه بعض الأعراء على نفسه، رضى الحاج أن يعود الولد بشرط أن يأكل من كده ولا يأخذ مصروفا، امتثل الولد للشرط ووعد بأنه سيشغل أى شغل وسيسلم لأبيه أجرته كل يوم.

الحاج رجل عقر ودائر، قال فى نفسه لعل وعسى مع أنه فى دخيلة نفسه كان يتوقع ماذا يمكن أن يحدث، فى مساء اليوم التالى للاتفاق دخل عليه وهو جالس على الكنبه فى غرفة المعيشة يختم صلاة العشاء سلام عليكم يا حاج أهلا يا ولدى، جلس الولد، لم يكن يبدو عليه أى قدر من الإجهاد بل كان الدم يجرى فى بشرته، هدومه نظيفة مكوية، إيش الحال؟ قال الولد: "اشتغلت كاتبا فى قرن وهذه هى أجرتى"، وضع فى يد أبيه بريزة فضية قدرها عشرة قروش. أيقن الحاج أن أم الولد أعطته هذه البريزة فوق مصروفه اليومى فراح يتصرم على المقاهى ثم جاء ليختمه على قفاه بهذه البريزة، فما كان من الحاج إلا أن نظر فى البريزة ثم رفع ذراعه

نحو الشباك وطوحها فى الهواء إلى الشارع، ذهل الولد لكنه مشى دون تعليق، فى المساء الثالث والرابع والعاشر تكرر نفس المشهد بحذافيره، فطننت الأم فأوعزت لولدها أن يتعب نفسه ويتبهدل ليقتنع أبوه بأنه اشتغل بالفعل، فكان الولد يظل طول النهار يلعب الكرة حتى برطش حذاءه ومزق ملابسه وكان يعطى لأبيه البريزة وهو يتصيب عرقا، فيفاجأ بأنه كالعادة يلقي بها من الشباك إلى الشارع فيمضى كاسف البال، وذات صباح استيقظ بسلامته من النوم فى الضحى يتحسس تحت المخدة فلم يجد مصروفا فهرع إلى أمه وجدها مقعية تحت سريرها تبكى بحرقة، صرخت فى وجهه: "خلاص لم يعد فى جشنى لحم تأكله بعث كل ما أملك! ابحث لنفسك عن حل! كن رجلا! الله يلعن خلفتك السوداء"، خرج هائما على وجهه قاذته قدماء إلى المقهى البعيد من أول وهلة أدرك القهوجى أنه ممحون، نظرة فى كلمة فى حدوته، كسرة خبز فى واحد شأى سيجارة، أراد الولد أن يستذوق فى المقابل، صار يساعد فى شغل المقهى، فوجئ بأنه أحب هذا العمل السهل المريح، فى اليوم الخامس من مبيته فى المقهى فوجئ. كما فوجئ صاحب المقهى. بأن الزبائن استلطفوه وأحبوه، بل فوجئ بأنه صار جرسونا محترفا، استأذن فى الذهاب لتغيير ثيابه فى البيت ثم يعود، حينما رآه أبوه كاد يحضنه من الفرح: رأى رجلا شقيانا بحق، هدومه متسخة ببصمات عمل محدد، وجهه مشدود العضلات عليه سمت الخشونة والرجولة، مع ذلك قرر الاستمرار فى موقفه المسرحى، أعطاه الولد خمسين قرشا أجرة خمسة أيام قضائها بعيدا عن البيت، رفع الأب ذراعه ليطوح بها من الشباك، انقض الولد على يده كالفهد المفترس صارخا: "عندك! كله إلا هذه! إنها دمى! عرقى وشقائى! ذلى وهوانى فى خدمة من يسوى ومن لا يسوى تريد تطويحها فى الهواء؟ لا يا أبا الحاج!" وقرص على قبضة أبيه فأخذ منها الخمسين قرشا دسها فى جيبه، غمره الأب بقبلات الفرح، لكن الغريب حقا أن الرجل حينما رضى تماما عن ابنه وطلبه للعمل

معه فى متجره الذى سوف يرثه عما قريب، رفض الولد بإصرار شديد، قال بصدق: سامحنى يا أبأ الحاج! أنا بقيت زى السمكة لو طلعت من بحر القهوة أموت! الدكان بتاعك ده كابوس مانيش قده! مانيش عايزه الله الغنى عنه! روح اتبرع بيه لليتامى وسيبنى ألقط رزقى على مزاجى فى العمل اللى بأحبه! كاد الرجل ينفجر باكيا وهو فى حال لا يعرف فيها إن كان قد انتصر أم انهزم، لكنه ريت على كتف ابنه فى مرارة وحزن شديدين قائلا: "وماله يا ابنى! ربنا يسهل لك على كل حال".

شخط فيها ولكن برقة وجدية:
أنا جاد فيما أقول، عجزت عن
الكلام، بكت، فأشار إلى الشيخ وإلى
صديقيه قائلاً: الماذون جاهز
والشاهدان جاهزان أم إنك غير
موافقة؟ قولى بسرعة: الماذون
يمشى؟.. هتفت: لا! أنا موافقة.

جملة موسيقية

عائدة لتوها من مستشفى قصر العيني الفرنساوى كانت مطمئنة إلى أنه استرد وعيه بالكامل بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر

فى غيبوبات متقطعة، وعدة عمليات جراحية من شدة خطورتها لم تحاول معرفة أسمائها الثقيلة ولا أسبابها المعقدة، هذه أول مرة تعود إلى البيت فرحة مستبشرة وسوف تنام لأول مرة أيضا بعمق ولو لساعتين اثنتين تقوم بعدهما لتنظيف الشقة وتهويتها حتى يجيء صباح الغد ليملاها بهجة وأنسا، هكذا هو فى كل مكان حتى المستشفى، يطرح نورا حوله، تحوم حوله الأرواح النبيلة والقلوب الطيبة، سرعان ما بات الجميع أصدقاء من أكبر طبيب إلى أصغر ممرض، يخدمونه بمزاج رائق ويتمهل للبقاء بجواره أطول فترة ممكنة، يزاحمون ضيوفه الكثر، حجرته خلية نحل تفرز العسل.. ما أسعدها بهذا الحب الغامر له، لكأن هذا الحب لها هى، امتداح لذوقها لرأيها، لسلامة حكمها على الناس.

ماذا تقولين؟ عشاقه من النساء أضعاف محبيه من الرجال، منهن جميلات خلابات من الوسط الصحفى والإعلامى والفنى.. وماذا يغضبك فى هذا؟ هل نسيت مركزك أم أنك عبيطة؟ كلهن لم ولن يأخذن منه ربع ما تأخذين من عطفه وحنوه وخيره.. مثله - على فكرة - لا يعرف الحب المدنس فما المزعج فى الأمر؟ لو كان هو خبيث الطوية لنضج خبثه على كيانه وبخ السم فى صدره فلا ترتضى عليه إحداهن، إن صدره ينبوع دفء وحب وحنان، إن

الواحدة منهن ترمى بنفسها فى حضنه مثلما ترمى بنفسها فى حمام السباحة، تغطس فيه ليغمرها الموج من شواش رأسها إلى أظافر قدميها، فى حضنه لا فرق بين جميلات ودميمات.. هى صحيح لم تجرب حضنه مطلقا ولكنها هكذا تتصوره كما أنها ترى وتشعر وتحكم وتتأكد من تفاوت أعمارهم بين محباته من أنه الأب والجد والمعلم والأستاذ والحبيب المرتقب لدى الكثيرات الصغيرات إلى أن يكتشفن بعد قليل أنهن صائرات إلى مراتب من النضج العقلى والعاطفى يغنيهن . مثلما أغنانى - عن الأحلام الرخيصة السهلة ويعلمهن مثلما علمنى معنى العفة ويملأ عقولهن بأشياء جميلة ومهمة مثل حب الوطن والله والناس والقراءة والموسيقى والشعر والسفر والمسرح والسينما .

رمت حقيبة يدها على الكنية الاستديو التى يفضل الجلوس عليها ليقرا الصحف مستمتعا بلون الفساتين الزاهية التى ترتديها شمس الصباح المارة من خلال الزجاج الملون بشغل الفسيخساء للشباك الدائرى فى نهاية هذا الممر المتجه شرقا إلى المطبخ والحمام جلست، الكنية تحتويها فى الحال كأنها متقاسة عليها، لا تود أن ترحها، إنها جاذبيته هو، التى يتركها فوق هذه الكنية حتى عششت فى نسيجها، يحلو لها أن تقلده فى وضع ساق على ساق والإمساك بجريدة والتقليب فيها بملل ثم تتحيا وتمسك بغيرها ثم تهملها وتروح - مثله بالضبط - تحمق فى جدران الصالة وسقفها وتعديل نظارة طبية وهمية على أنفها .. صورة جمال عبد الناصر فى برواز كبير قد اندمج فى لعب الشطرنج، صورة أم كلثوم وهى فتاة صغيرة، صورة روزاليوسف، سعد زغلول، بيرم التونسي، سيد درويش، كامل الشناوى، محمد عبدالوهاب، توفيق الحكيم، صور عتيقة فى براويز بالأويمة تشبه شغل المشرييات.. قامت، فتحت حجرة مكتبه، رائحة الكتب والمجلدات وزيت البوية المدهونة حديثا تهب فى حميمية كأنها تهتف بها: فين الأستاذ؟ تبسمت، تذكرت أنه شم نفسه فعلا، أصبح يكركر بضحكته الجميلة التى تنفجر لها أسنانه البيضاء المتسقة، أصبح قادراً على الاحتضان والتقبيل..

سبحان الله كلهن ينعمن بحضنه إلا أنا التى تقاسمه البيت والحياة
يجفل وأجفل كلما اقتربت منه إلى حد الاحتكاك المباشر، حتى وهو
خارج من الحمام بالفانلة واللباس يمشى مهرولاً كالأص على
أطراف أصابع قدميه منفلتاً إلى حجرة نومه فيوصد الباب من
ورائه ليكمل ارتداء ثيابه فيما أنا واقفة أمام اليوتاجاز أرقبه وأرقب
فنجان القهوة حتى لا تفور.

جلست إلى مكتبي، فتحت الدرج لترتب أوراقه، أمسكت علبة
الأقلام الرصاص، انصرف ذهنها يسترجع شريط حياتها فى هذا
البيت: كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاماً، كان الأستاذ أيامها
عريساً على زميلته الصحفية سعدية المنيسى، وكانت هى - نوال -
خادمة لأم سعدية هانم حيث قامت باستلامها من ملجأ الأيتام
وربيتها، فلما تزوجت ابنتها سعدية قالت لها: خذى نوال هدية منى
تفعلك فى شغل البيت وتفرغين أنت للصحافة، الهانم تحب
الخلفة، تأخر حملها، ذهبت إلى الطبيب مع الأستاذ، قال الطبيب
إن الأستاذ قليل الأمل فى الإنجاب لضعف فى حيواناته المنوية، يا
دار ما دخلك شر كل واحد منهما يشوف حاله وتبقى الصداقة،
وقد حصل، تم الطلاق، تزوجت هى من زميل لهما أنجبت منه ولداً
واكتفت بذلك لمشغوليتها المتزايدة، ذات يوم جاء الأسطى برهوم
النقاش وخطبها من الأستاذ، تزوجته، عاشت معه سنة كاملة تخدم
الأستاذ وتخدمه تأخر حملها، قال الطبيب إن عندها مشاكل فى
الرحم خلقية، طلقها برهوم، عادت إلى حجرتها فى بيت الأستاذ
كأنه بيت عائلتها.

قامت إلى المطبخ عكرشت فى النملية، سحبت صندوقاً من
الكرتون، دلقت على الأرض فامتلات بكومة هائلة من رؤوس الأقلام
الرصاص، كانت تحتفظ بها ويعز عليها أن ترميها وهى التى حملت
بصمات الأستاذ وكتبت أفكاره التى أعجبت كل الناس وبيقايها
تعلمت فك الخط بمعاونة الأستاذ لكى تقرأ مقالاته، الآن لا تدرى
ماذا تفعل بها تريد أن تبتكر منها حلية ما، ليس الآن على كل حال،
مهمتها الآن تنظيف الشقة وطبخ أكلة صحية للأستاذ، أعادت

رعوس الأقلام إلى الصندوق، أعادت الصندوق إلى النملية، خلعت ثيابها، لبست هدوم الشغل، شرعت فى تنظيف حجرة نومه. فى الصباح أرسلت الشمس فساتينها الملونة الزاهية فتسلقت الكنية وجهاز التلفاز وفرشت الأرض بسجاجيد صغيرة وصلت شراشيبها إلى سريرها نهضت قاعدة تمسح بيديها على وجهها كأنها تتوضأ بالضوء، نشطت فى تجهيز الغداء وتحضير الملابس الداخلية للأستاذ، إن هى إلا ساعات قليلة وجاء الأستاذ فى صحبة اثنين من الأحبة كانا ساهرين معه لتلقى آخر جلسة علاج طبيعى قبل المغادرة.. كان الغداء جماعيا، فى المساء نزل صديقه محمود وعاد بعد قليل وفى صحبته شيخ مهيب، جلسوا فى مكتب الأستاذ، قدمت لهم الشاي والكيك نظر لها الأستاذ وقال: اقعدى يا نوال، قعدت على حرف الكرسي وجلة، قال الأستاذ: تقبلين الزواج منى يا ست نوال؟

ست؟! ليست من عادة الأستاذ أن يسخر منها نظرت فى قلب عينيه بتركيز، لا ترى فيهما سوى البسمة الطالعة من قلب طيب، سألت دموعها، شخط فيها ولكن برقة وجدية: أنا جاد فيما أقول، عجزت عن الكلام، بكت، فأشار إلى الشيخ وإلى صديقيه قائلا: المأذون جاهز والشاهدان جاهزان أم إنك غير موافقة؟ قولى بسرعة: المأذون يمشى؟.. هتفت: لأ! أنا موافقة.

تم الزواج بالفعل وهى لا تزال مضطربة قلقة: إنها طوال خمسة وعشرين عاما فى هذا البيت فى عز صباها والأستاذ فى فتوته وعزوبيته فلم تصدر عنه حركة دنيئة ولم يخدش حياءها بكلمة بل كان مثالا على العفة والاحترام لا يسمح لها بدخول حجرة نومه وهو بداخلها.. ولكن يا بنت الناس، ماذا سيفعل بك وتفعلين به وهو الآن فى الحادية والثمانين من عمره وأنت فى الخامسة والأربعين وقد صرتما زوجين على سنة الله ورسوله؟!.. أخيرا صارا وحدهما لبست قميصا مفتوحا زاهى اللون يبرز مفاتنتها، دعاها للجلوس بجواره على السرير أخذها فى حضنه، احتواها، مالت به فمددته بجوارها وغاصت فى حضنه، نام رأسها على كتفه وهدأت من

حرارتها إذ تذكرت في الحال أنه لم يبدأ بعد مرحلة النقاها وإنها لأحرص منه على صحته، تسلل صوته الدافئ الباسم إلى أذنها وهو يتأهب للنوم:

.. "خفت أن أموت فجأة فيطردك صاحب الشقة فتلوصين!..
وليس لك أهل سوى!.. هو الآن لن يجرؤ على طردك!

اقشعر بدننها من توجس مفاجئ، جذبها إليه وريت بيده على ظهرها فاستكنت تماماً، حومت فوقهما أنغام ناعمة قادمة من الراديو المفتوح دائماً على محطة الموسيقى، ما إن كرر النغم نفسه حتى انتظم صوت تنفسهما في فلك النغم.

٥ على سبيل الدعابة قمت
 لأقيسها. لبست الجاكيت فإذا به
 قد لبسنى وانضبط على الكتفين
 والصدر والكمين بالملليمتر. هتفوا
 جميعا فى فرح كأننى حاوٍ قدم نمره
 بارعة. أشاروا إلى البنطلون وقالوا:
 بالمره. أسكرتنى الحاله فلم أجد
 حرجا فى خلع بنطلونى
 لارتداء الآخر.

بكويه من سوق الكائنو!

حوّدت أشرب حجرين الشيشة فى قهوة خميس فى شارع الجودرية بحى الغورية العتيق قبل أن أترك المنطقة عائداً إلى مسكنى فى العمرانية، فمئذ أن نفخ المولى فى صورتي ببركة دعاء الوالدين وتوظفت بالثانوية العامة فى هيئة الآثار التى أرسلتني ضمن طاقم من الموظفين لإدارة بيت أثرى من القرون الوسطى بالقرب من حى الغورية حيث يؤمه السياح وأولاد البلد والدخول فيه بتذكرة مدفوعة الأجر، أصبحت زبونا دائماً فى قهوة خميس حيث أجد فيها خدمة جيدة، كما أن جوّها لطيف وجذاب، إذ هى عبارة عن دكان من بقايا العصر المملوكى بباب ذى ضلفتين من الخشب يغلق بدرفيل حديدى وقفل كبير، وحين تجلس فيها تشعر بأنك كما لو كنت تمثل دوراً فى فيلم تاريخى اختلطت فيه القرون الوسطى بالعصر الحديث والحياة الراهنة.. جميع أشكال وألوان وأنواع الملابس موجودة حواليك، فوق أجساد ناس، معلقة على شموع فى الشارع، وفى فتارين زجاجية، من العمامة الصعيدية المملوكية إلى الطربوش العثمانلى إلى الطربوش المغربى والعمامة الأزهرية والطواقى، ناهيك عن الجلابيب والقفاطين والبذل والبنطلونات الجينز والسترات الجلد والشمواه وأحذية معروضة بكثافة وأرجل حافية بلا حصر تمخر عباب الحارة ليل نهار من باعة سريحة إلى متسولين وعتالين وعرجية وبائعى عرقسوس وبطاطا وخضراوات وفواكه وملابس على عربات كارو.. ذلك أن

الحارة أصبحت منذ وقت بعيد جداً سوقاً للكانتو، أى الملابس القديمة، ربما هى ثالث أشهر أسواق الكانتو فى القاهرة بعد وكالة البلح وبداية شارع الموسكى من جهة العتبة.

فيما مضى كنت ألبس من سوق الكانتو، أستلقط منه "جاكيت" أو "بول أوفر" أو "بنطلون" أو جزمة، ولكن يظهر والله أعلم أنتى منذ توظفت فى الميرى ركبتنى نعرة العزة بالنفس كموظف حكومى مُعتبر، لا يصح أن يُرى وهو فى سوق الكانتو يساوم على ملابس مستعملة وقد يُضبط وهو يخلع ثيابه فى عرض الطريق ليقيس الثوب الذى يساوم عليه، إنما الذى دار فى خلدى آنذاك أن اللبس من سوق الكانتو نادراً ما يكون فى تمام اتساقه على جسدى، دائماً أبداً يحتاج لتقييف أو ترميم عراو، ولكن حقيقة الأمر كما بدت لى وقتها أنتى بمجرد أن أصبحت أقبُض راتباً شهرياً مضموناً انتهت لبس الجديد الذى لم يسبق أن لبسه أحد سوى، اشتقت إلى رائحته المبهجة قبل أن يزخمها ويكمكها عرق الآخر، كانت سعادتى لا توصف وأنا أرتدى ملابس جديدة حتى وإن كانت متواضعة المظهر والقيمة فإنها فى النهاية جديدة وعلى مقاسى أنا، أفك بوشها أنا، أفض شوكلها أنا.

كففت عن اللبس من سوق الكانتو لكننى أدمنت الجلوس على قهوة خميس التى يجلس عليها بائعو سوق الكانتو، خاصة السريحة، الواحد منهم يسرح بقطعتين أو ثلاث يبيعهها على رواق بطرق مبتكرة، إما لحسابه الخاص وإما لحساب واحد من أصحاب المحلات، أى أن القهوة تعتبر سوقاً للكانتو بعيداً عن السويقة التى يختلط فيها الفث بالسمين ولا بد أن ينطسّ الزيتون فيدفع فى الفث ثمن السمين.. الجالس عن يمينك أو يسارك أو أمامك إن كانوا فى مجملهم عشرة أشخاص، فسته منهم على الأقل باعة للكانتو ولكن على صور أنيقة متحضرة شكلاً فحسب، هذا الجالس أمامك على سبيل المثال، أفتدى يجلس واضعاً ساقاً على ساق، يدخل السجائر الأجنبية بلذة متباهية، يطوى على ركبته "جاكيت" محترم، أو "بالطو جبردين" معتبر، أو شال من الكشمير أو عباءة. إن كنت وجهاً

جديداً على المفهى ستتصور أنه زبون تخفف من هدمه الثقيلة، لكنك بقليل من دقة الملاحظة ترى أنه يرتدى ملابس أثقل، كما تلاحظ أن المنظر متكرر حواليك على أي حال فبعد قليل ستري أن واحداً منهم أو أكثر قد استقبل شخصاً أو أكثر واشتبك معه فى فصال ممسكا بهذه الهدمة أو تلك بقلب فيها ويتفحص الجيوب والأزرار وخط العرق الذي يلمع فوق الياقة، سرعان ما تصير المساومة مشهداً مسرحياً عالى الصوت تتطاير فى حواره أيمانانات مغلفة بنبرات حادة منفعة فى عراق حقيقى: على الحرام من دينى طلاق ثلاثة أنطس فى نضرى! ثم يؤوب العراق إلى رقة وحق مولانا الحسين ما جابت تمنها .. إلخ.

الفرجة عليهم بالنسبة لى كانت ممتعة، بل سرعان ما صرنا أقرب ما نكون إلى الأصدقاء، معظمهم يجاملنى بحجر شيشة أو بواحد شأى ليستقطبنى فى صفه إذا ما نشأت مساومة بينه وأحد الزبائن على قطعة يبيعها، فحينما ينفع البياح يقترب منى عارضا الهدمة تحت نظرى هاتفا: "بذمتك يا سعادة اليه الهدمة دى تتعيب"، فلا أجد مضراً من ملامستها والتقليب فيها ظاهرياً لكى أقول: "صاغ سليم"، عندئذ كثيراً ما يكون لشهادتى تأثير مفيد، على الأقل قد يعيد فتح باب المساومة بعد إغلاقه، أو قد يرجع الزبون بعد إيهام بأنه انصرف، ليزيد بضع برايز أو شلنات، وحينئذ لا بد أن تتم البيعة، ولا بد أن يكون كلاهما كسباناً.. إلى أن داهمنى فى ذلك المساء الولد أبو سبعة، له بالطبع اسم فى شهادة الميلاد لكنه معروف هنا بأبى سبعة نظراً لأنه مولود ابن سبعة أشهر، فبدت ملامحه حتى وهو فى الأربعين من عمره كأنما ينقصها شىء ما، ظل ما، لكنه ولد سفروت عفريت يعرف كيف يستلقط الهدمة والزبون الملائم لها بعصرية يحسده عليها جميع الباعة. دخل القهوة طاويا على ذراعه بدلة كاملة على درجة عالية من الفخامة الزاعقة، رائحة صوفها فائحة عن بعد، صوف إنجليزى هيلد، كاروهات دقيقة مثل ملامح أبو سبعة، لونها كحلى غامق عليه سمت مخملى أرسقراطى يضفى على قماشه البدلة

ظلاً مهيباً يضاعف من حجمها فى القيمة، كان بينى و"أبو سبعة" شبه صداقة واستلطاف لله فى الله، كان متجهاً ناحيتى ومن ورائه ذيل من أنداده السريحة ينادونه وهو يعطيهم الطرشاء حتى اقترب منى، دحرج المسا وجلس بجوارى، بصوت دافئ شديد الحميمية هدرت نبراته فى أذنى "إلهى وإنت جاهى يارب يكون لك نصيب فى الحطة السُّقع دى! يا بخته اللى حيلبسها حترفعه للسما!.. بص شوف القماشة! شوف البطانة زى المراية!.. على الطلاق بالتلاتة صاحبها حلف لى قدام العيال دول إن دى أول لبسة ليها الليلة". أوما العيال بالموافقة وإن بدت فى أعينهم نظرات الحسد. قال الولد غشلق "خد عرقك فيها تلاتين جنيه وسبهالى يا أبو سبعة أنا أعرف أبيعها بكرامتها!". وقال زقلمة "على بأربعين!". وقال أبو شامة فى تحذير "على فكرة إن ما اتصرفتش فيها بسرعة ممكن صاحبها يجيب فلوس ويرجع ياخدها!". شوّح أبو سبعة فى وجوههم بثقة: "ولا حيقدر يعمل أى حاجة! ولا حتشوفه هنا تانى غير بعد عمر طويل!". قلت فى توجس: "فيه إيه يا بوسبعة". قال: "أقول لحضرتك. ثم أشعل سيجارة، مارلبورو باستمتاع. بقى الحكاية إن وائل بك صاحب البدلة دى ابن واحد من الحرامية التقال قوى اللى مالكين البلد من بابها.. ناس عترة! الواد قمارتى غشيم ومتعافى متهاى له إن ما دام أبوه سارق البلد هو كمان حيرغم الحظ يقف معاه، كل ما يخسر يعاند الحظ ويلعب! لعب على كل حاجة معاه! بص لقى نفسه مديون بخمسين جنيه ويرضه عايز يلعب! يكفيك شر برشام أبو صليبة والماكس فورت بيعلى البننى آدم دماغه زلطة!.. بص للى حواليه: حد فيكم يسلفنى خمسين جنيه؟ اللى حواليه كلهم كسبانين منه وعارفين ان عربية الـبى إم دبليو" راكنة بره فى شارع الأزهر!.. محسوبك واقف يتفرج! أنا دايمًا أقف عند الخن ده فى أواخر الليالى ألقط رزقى من حاجات زى دى!.. قلت له يا وائل بك أنا أسلفك خمسة وسبعين جنيه لو قلعت البدلة دى واديتهالى!.. بينى وبينك أنا قاصداً وتربة أبويا ومقام الحسين أنا قاصدها! فرصة يا جدع

أشمت فى واحد منهم وأقلعه عريان بلبوص وأتحكم فى مزاج ديك أم اللى خلفوه!.. لكنه طلع أكثر غتاته منى! ابن اللبوة أبرد من لوح التلج! فاجأنى بقوله: خليهم مائة وأنا أعطيها لك!.. يا ابن ديك الكاالب! طبعاً! إنت حيهمك بدلة ولا عربية وأبوك سارق بلد بحالها!.. قلت: ماشى! إقلع!.. ساب الجاكت وراح لعريته جاب هاندباج فيها ترينج! أصله من حسن الحظ كان جاي من النادى على هنا!.. ليس الترنج وإدانى البدلة قلت مفيش غير خمسة وسبعين بس إن كان يعجب!.. قال زى بعضه ولو إنها أول لبسة ليها لكن باين عليها وش خسارة!.. افتحمننا أكثر من زبون، حوالى خمسة زبائن شاهدت الحسرة فى عيونهم على ضياعها منهم إما لأنها أوسع وإما أضيق من اللازم، لكن المدهش أنهم لم يستنكروا الرقم الذى طلبه أبو سبعة مائتى جنيه بالتمام.

على سبيل الدعاية قمت لأقيسها. ليست الجاكت فإذا به قد لبسنى وانضبط على الكتفين والصدر والكمين بالمليمتر. هتفوا جميعاً فى فرح كأنتى حاو قدم نمرة بارعة. أشاروا إلى البنطلون وقالوا: بالمره. أسكرتتى الحالة فلم أجد حرجاً فى خلع بنطلونى لارتداء الآخر، شددت السحاب وشيكيت عروة اللسان فى زرارها فإذا هو غير محتاج لحزام صفقوا منبهرين، أشاروا إلى مرآة الجدار من خلفى فاعتدلت ناظراً فيها فإذا أنا شخص آخر تماماً، برغم رداء القميص وياقته الرخوة الرخيصة فإننى بدوت كأحد الباشوات. هتف أبو سبعة: "طلاق ثلاثة ما إنت قالع!.. وقالوا جميعاً: "تبقي غلطان لو قلمت! دى رزق متفصل عليك تقلمه!..". جلست مستسلماً، وحين رحت أنقل حاجياتى إلى جيوبى الجديدة بدت لى ثيابى التى كنت معتزاً بها منذ قليل شيئاً رديئاً بائساً وحقيراً جداً، بل أشفققت على نفسى ورثيت لها حرمانها من طراوة الهدمة الطيبة الثمينة حتى وإن كانت مستعملة!

لكأن أبو سبعة قرأ خواطرى وعابير مشاعرى، قال ناظراً فى عينى بأخوية عميقة الدفء: "هات ميت جنيه بس! مش خسارة فيك! من ربكتى لم أفطن إلى أننى منذ شهور أحوش مائة جنيه

لإصلاح سيفون المرحاض فى شقتى، وكنت متوهماً أنها اكتملت
فإذا بى أضطر إلى إكمالها بما فى جيبى من مصروفى المقرر
لنهاية الشهر. دسها أبو سبعة فى جيبه، ثم طوى ملابسى القديمة
ورشقتى بنظرة تفيض سما واحتقاراً: "طبعاً مش لزمك الهلاهيل
دى عدم المؤاخذة". ترددت وتلجلجت، لكننى حينما رأيت شعوراً
بالاشمئزاز يكاد يغادر عيونهم ويرشقتى راوغت قائلاً على سبيل
المداعبة: "بكم ستبيعها؟". قال ببساطة "شوف إنت ما يمكن أن
يدفعه بتاع الروباييكيا من غير مؤاخذة برضه". ثم ضحك
فضحكوا وضحكت أيضاً مداراة لكسوفى. ثم انصرفوا جميعاً
وجلست وحدى أستوعب ما حدث وقد تبين لى أننى من غد يجب
أن أوصى "أبو سبعة" بأن يستلقط لى قميصاً أجنبياً يليق بالبدلة،
ويا حبذا رباط عنق وحذاء.

هجمت الحارة وخفتت أضواؤها وخلا المقهى إلا من العابرين
آخر الليل. كانت سعادتى بالبدلة قد منحتنى لذة الجلوس طويلاً
منجصاً واضعاً ساقاً على ساق، حقاً إن الثوب الثمين يرفع الروح
المعنوية، ولكن روحى هبطت فجأة إلى سفح سحيق حين تذكرت أن
ما بقى فى جيبى من نقود يكفى بالكاد حساب المقهى على
الحركرك، وهذا يعنى ببساطة أننى سأبقى ها هنا حتى مطلع
الشمس فأتوجه إلى مقر عملى وأتصرف فى أى سلفة من أى
زميل. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً حينما حاسبت
الجرسون وأطلعته على حقيقة موقفى، فواسانى بابتسامة وبحجر
شيشة على حساب المطرح، جعلت أنفخ الدخان فى سأم وتعب.
فجأة اندفع من تحت إبطى رنين موسيقى صاوح، عندئذ شعرت
لأول مرة أن الجانب الأيسر للجاكت أثقل من الجانب الأيمن،
تحسست البطانة، إنه الجيب الصغير التحتانى، له لسان خارجى
يغطيه وينغلق عليه بعروة وزرار. فصلت العروة عن زرارها، مددت
أصابعى، سحبته، إنه تليفون محمول فى حجم علبة الكبريت،
جعلت أحاول فك ألفازه، لكن الدنيا سرعان ما أظلمت، راحت
الظلال السوداء تتدفق على من كل ناحية، وأكثر من يد قوية تطبق

على يدي وكتفى. رفعت رأسي مرتعباً، مجموعة من رجال أقوياء ذوى وجوه صلبة كأيديهم. قبض كبيرهم على ذراعي وأوقفني: "فين وائل الشوريجي؟". تحسرج صوتي: "وائل مين حضرتك؟". مادريت إلا ووجهي قد انخلع من مكانه بصفعة طوحتني كعود الحطب: "أفق! وائل الشوريجي الذي تمسك الآن بتليفونه المحمول وتلبس بدلته! انطق!". طاش عقلي وراح، صرت أتخبط، قلت من خلال البكاء: "سمعت الليلة عن واحد اسمه وائل وإنه ركب عربته الـ "بي إم دبليو" ومشى!". قال: "إذن فأنت تعرفه وتعرف ماركة سيارته فوق البدلة والمويابل! اسمك إيه؟". قلت: "مسعود عبد الراضى من الآثار!". صرت أنظر حوالى لعلى أجد من أستجد به فلا أجد، حتى الجرسون اختفى!. أحاطت الكلابشات الحديدية بيدي، اقتادوني إلى عربة الشرطة الزرقاء وكان ضوء الصباح فاتح الزرقة، فشعرت أننى قد صرت فى العراء عريانا تماماً لدرجة أن جسدى راح ينتفض من الشعور بالبرد قبل الخوف، لا أدري لماذا مرت ثيابى القديمة أمام عيني فبكيته بحرقة حقيقية، ولم أكن أدري أن ثياباً أشد منها بؤساً وحقارة تنتظرني فى السجن، حيث أمضيت فيه عشر سنوات من عمري بتهمة الضلوع فى إخفاء لص محتال مقامر اسمه وائل الشوريجي لم يظهر له أثر لا هو ولا سيارته منذ تلك الليلة إلى هذه اللحظة.

ما إن بدأت الحلقة حتى راح
 جسد عبده السيد عبده
 يتضاعف حجمه شيئاً فشيئاً حتى
 خُيِّل للجميع أنه يوشك أن يفرقع..
 احمرت عيناه كأنه يبكي دماً قانياً
 وهو يحملق مذهولاً في حفيده، غير
 مصدق أن حفيده قد هاجر سراً إلى
 إسرائيل واشتغل هناك وتزوج
 من يهودية.

الغضب

عم عبده السيد عبده أحد المعالم الأثرية البارزة فى بلدنا، إنه أكبر معمر ليس فى بلدنا وحدها بل فى جميع القرى المحيطة بنا، وربما فى محافظة كفر الشيخ كلها. فلو حسبنا عمره بناء على شهادة الميلاد التى يزعم دائماً أنها فى ملفه الوظيفى فى السراى الخديوى فى القاهرة لكان عمره فوق التسعين بثلاث أو أربع سنوات، لكننا لو حسبناه بناء على الأحداث التى شافها والحواديت التى تدور حوله لوجدنا أن عمره قد يتجاوز المائة عام بكثير فحينما قامت هوجة عراقى - التى يدرسونها لنا فى المدارس باسم الثورة العراقية - كان هو رجلاً كبيراً من موظفى الخاصة الخديوية، وحينما قامت ثورة التاسع عشر كان هو بالصدفة مرافقاً لأفندينا فى سفرة علاجية سرية فى مدينة باريس، أى أنه شاف مدينة باريس وتمشى فيها مثله مثل رفاعة الطهطاوى وطه حسين وتوفيق الحكيم ومثلهم أحب واحدة وأحبته أكثر من واحدة وكان قد أوشك على الزواج من المحبوبة والعودة بها إلى مصر لولا أن المرض اشتد على أفندينا فخجل هو من نفسه وخلع أمر الزواج من دماغه إلى أن يتم شفاء أفندينا لكن أفندينا عاد قبل أن يتم الشفاء إلى مصر لأن استكمال العلاج كان مجرد عقاقير دوائية أمرها ميسور فى مصر.

البلدة كلها تعرف أنه ليس يفشر، فنحن جميعاً نعرف تاريخه بدقة، تناقلته الأجيال ورددته السنة الناس فى مجالسهم فى بيوتهم فى مدارسهم فى دكاكينهم فوق مصاطبهم، من قبيل الطرافة أحياناً، وفى

معظم الأحيان من قبيل الإعجاب والتقدير. كل الناس كبيرهم وصغيرهم ينظرون إليه باحترام، يعاملونه بود عميق، يعتبرونه شيئاً ما مهما، قيمة ما يجب احترامها.. إلا أبناءه وأحفاده لا يعبتون بشيء من هذا الذي يحكى عنه، هي في نظرهم مجرد حواديت أشبه بالخيال، وهو مجرد رجل طال به العمر حتى شهد الثورة العربية وثورة التاسع عشر وثورة يوليو وثورة التصحيح وما تلاها، عاش عهود الخديوى توفيق والسلطان حسين والملك فؤاد والملك فاروق واللواء محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأنور السادات وحسنى مبارك، وشاف الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية وحرب تقسيم فلسطين وحرب ستة وخمسين وحرب النكسة وحرب أكتوبر وحرب حسن نصر الله الأخيرة مع إسرائيل فى لبنان.. ولا يزال صلباً عفا قوى الذاكرة يفرك الحديد بين أصابعه رغم أنه ليس يأكل إلا الفتات ولا يشرب أى مكيفات ولا يكف عن التجوال فى البلدة يلاطف الناس ويلاطفونه، يتسلى بهم ويتسلون به، يضحك من تقاهتهم وخراعتهم وحبهم للحياة أكثر من حبهم لكرامتهم.

هو أسود غطيس، يرجع أصله إلى الجنوب السودانى، عملاق فارغ القوام متين البنيان ممثل الجسد لكه بهلوان مدهش، من فرط سرعتة ومرونته ولياقته البدنية لا تكاد تراه وهو يقفز فوق ظهر الحصان، فجأة تراه راكباً، فجأة تراه واقفاً، فجأة تراه جالسا فى القهوة، فى أقل من ثانية تراه قد صار فى الشارع العمومى يساعد الناس فى رفع شئ ثقيل، أو فى إطفاء حريق أو فى استنهاض بهيمة تعثرت والعجيب أن الجميع، صغارا وكبارا، لا يقولون له يا عم، بل ينادونه باسمه المجرد نظرا لما بينهم وبينه من حميمية ترفع الكلفة، والأعجب أنه سعيد بذلك إذ إنه فى غاية من الظرف واللفظ وخفة الظل كطفل شقى عابث، لا تجاعيد فى وجهه ولا انحناء فى قامته كما أن حنكه كامل الأسنان والأضراس والأنياب قويا.

شغلته الرسمية المعروفة للجميع من قديم الأزل كانت: طبيا، كان الطباخ الخصوصى لأحد أمراء العائلة العلوية المالكة لعله من أبناء الخديوى توفيق وقد حدث فيما ترويه الحواديت. أن أقام الأمير وليمة على شرف المندوب السامى الإنجليزى.. فجن جنون المندوب السامى

من سحر مذاق الطعام بجميع أصنافه، طلب الفرجة على تفاصيل هذا المطبخ الشرقي الفاتن. فى المطبخ قدموا له شخصية الطباخ الذى وضع يديه فى كل شىء أكلوه على المائدة يومها. راح المندوب السامى يثى عليه، يمتدح سماحة نفسه فى الطبخ، تمنى لو رزقه الله بطباخ مثله، فما كان من سمو الأمير إلا أن دفعته الحماسة فقال للمندوب السامى: "تفضل خذه إنه هدية منى إلى جنابك". كلام الأمراء طبعاً لا يرد ولا يراجع.. وهكذا كان على الطباخ عبده السيد عبده أن يحزم حقيبة أغراضه وينتقل إلى قصر الدويارة ليطبخ للمندوب السامى الإنجليزي، يطبخ لعدو بلاده وأسرته التى يجب أن تتسمم بالسّم الهارى . أطعمة شرقية مصرية تفتح الشهية. كان من المستحيل عليه أن يرفض تنفيذ أمر الأمير بل أن يعترض على العمل فى خدمة العدو الإنجليزي الأزرق العينين كسمكة ميتة.

يقول إنها كانت حوسة، لكن الله ألهمه الحكمة، صبر على العمل شهرين ثلاثة، ثم زعم لرجال قصر الدويارة أن أمه توفيت فى السودان وأنه يطلب إجازة يومين ثلاثة ليدفن أمه ويتلقى عزاءها ويعود، لكنه تأكد أنهم غير مقتنعين بكلامه ومن ثم فلن يعتقوه.. فغافلهم بليل، وتسلسل هاربا، تاركا أغراضه فى حجرته، اترك على الله إلى السودان، إلا أنه فى المركب سمع ركابا يقرعون فى صفحة الحوادث ويتندرون ضاحكين بهزاء وسخرية، أصاخ السمع، تبين له أن المانشيت الكبير فى الجرنال يقول إن طباخ المندوب السامى سرق نقودا ومجوهرات من بيته وهرب.. يا دى الحوسة، مع ذلك لم يكن أمامه ثمة من مفر غير الهرب غير أن أقاربه فى السودان قرعوا الخبر وخافوا من استضافته بل رفضوا تصديق أنه لم يسرق شىئا أصدق هو ويكذب المندوب السامى؟ غير معقول طبعاً فكر فى تسليم نفسه للكشف عن الحقيقة لكنه خاف حينما تأكد أن الشرطة تتعقبه فى كل مكان للقبض عليه وأن الصحف تنشر أخباراً يومية متواصلة وترصد جائزة لمن يرشد عنه، والناس تتكلم فى الشوارع وعلى المقاهى مما دفعه إلى الإمعان فى التفكير والتخفى.

هكذا أمضى المسكين سنوات طويلة من عمره بعيداً عن زوجته، وعياله منفياً فى أماكن تتجدد كل يوم من الخرطوم إلى أم درمان إلى

حلايب السودانية فحلايب المصرية، إلى أن استقر في نجع أسواني يعمل خفيرا لمزرعة خيول يملكها مليونير أعرابي.. إلا أن أذن الله لغريب الديار أن يعود إلى زوجه وعياله.. قامت ثورة يوليو.. أقفلت المحروسة بالملك فاروق منفيا إلى إيطاليا، للمم المندوب السامى أغراضه وجيشه وغادر البلاد إلى غير رجعة. لم يعد ثمة من أمير أو باشا، الكل باتوا سواسية نجح فى إقناع واحد ممن يملكون مدخرا من المال فشاركه فى إنشاء مزرعة لتربية الخيول والماشية شملها الله برعايته وتوفيقه، إلا أن نجاحها أغرى الكثيرين بتقليدها ثم دخلوا فى منافسات ونزاعات ومعاكسات حتى فسد المشروع على الجميع ومات.

عاش عبده السيد عبده سعيدا بأولاده وأحفاده وإن فى شظف من العيش، إلى أن فجع ذات يوم فى اختفاء أحد أحفاده الذى كان يحبه ويتوقع له النجاح فى الحياة، كان الولد معذورا، فبعد أن اجتهد وتخرج من كلية الحقوق لم يجد وظيفة ولم ينفع فى شغل المحاماة حيث كثر عدد المحامين فى البلد، فلما يئس الولد من الحكومة والبلد طفش دون أن يترك وراءه أى خبر. جفت دموع أبيه وأمه وسلموا أمرهما فيه لله إلا جده عبده السيد عبده لم تحف دموعه ولم يهدأ، كل حين يسافر إلى القاهرة ويسأل فى السفارات العربية، ويمر على المستشفيات، وعلى الأشقياء من قطاع الطرق وأبناء الليل فى البلاد البعيدة، يريد أن يرسو على بر: هل مات؟ هل تسال إلى دولة بعيدة بدون أوراق رسمية؟ هل اختطف؟ هل وهل وهل؟... وكان الناس إعجاباً أو سخرية يتتدرون بقولهم إنه أخيرا قد وجد شيئا يشغل به أيامه ويمد حبل الحياة فى عمره.. إلى أن فوجئ مؤخرا بمن يهمس فى أذنه بكثير من التحفظ الخبيث بأنه قد شاهد حفيده الغائب على شاشة التلفزيون فى برنامج على قناة دريم الفضائية، فانتفض الرجل كالبركان الهادر: "ليتك ناديتى" فقال له: "أطمئن إن الحلقة ستعاد بعد ساعتين من الآن!"

من فوره جعل يهرول قاصداً هذه العشة القائمة فى مدخل البلدة كان صاحبها قد حولها إلى مقهى، فيها تليفزيون بوصلات دش مسروقة تعرض مباريات كرة القدم المشفرة والأفلام غير المراقبة، ويسهر فيها الناس إلى قرب الفجر، رآه بعض الزبائن فعرفوا لماذا جاء، شعر هو فى عيونهم بنظرات غير مريحة توجس شرا، كتم فى صدره بوارد غضب

مجهول السبب. جلس مرابطا أمام جهاز التلفزيون يحملق فى الشاشة بعينين واسعتين نهمتين، وفى كل برهة يسأل من حوله: أهذه محطة دريم؟ فيهز بعضهم رأسه بالإيجاب ويهرب الآخرون بنظراتهم، وأخيرا جاء الذى كان قد أبلغه، فضبط القناة على البرنامج..

ما إن بدأت الحلقة حتى راح جسد عبده السيد عبده يتضاعف حجمه شيئا فشيئا حتى خيل للجميع أنه يوشك أن يفرقع.. احمرت عيناه كأنه يبكى دما قانياً وهو يحملق مذهولا فى حفيده، غير مصدق أن حفيده قد هاجر سرا إلى إسرائيل واشتغل هناك وتزوج من يهودية أنجب منها ابنتين وقد حصل على الجنسية الإسرائيلية ولعله قد غاب عن ذاكرته أن أخاه الأكبر قتلته إسرائيل فى النكسة، وأن ابن عمه قتلوه فى حرب أكتوبر. نكس الرجل رأسه لبرهة قصيرة، ثم رفع رأسه والشر يتطاير من عينيه، ثم نتر نفسه واقفا فكانته تفكك إلى عشرات القطع ولم يبق فيه إلا عيانان تنغرزان فى وجه الحفيد بحقد حيوان مفترس غضوب، لحظتها كان الحفيد يتكلم عن الأسباب التى دفعته إلى الهجرة إلى إسرائيل وعن الأسباب التى تدفعه الآن إلى الرغبة فى العودة إلى مصر لكنه لا يعرف كيف يحل العديد من المشاكل التى غرق فيها.. عندئذ سُمع دوى الانفجار المروع، قنبلة تفجرت فى ملح البصر، رآها الجميع ورفضوا تصديقها، كان مستحيلا أن يصدقوا أن عبده السيد عبده جمع قبضة يمينه ونشّن على وجه حفيده، ففاصت قبضته فى قلب الشاشة ثم انتزعت منها بنفس القوة الجبارة مثلومة دامية الذراع، كان المقهى قد أصابه زلزال بعثر الناس والأكواب والكراسى، ثم أصيب المكان بمن فيه بشلل كامل، يحملقون فى عبده السيد عبده كالموتى، ويحملق هو فى بحيرة من دمه تكونت على الأرض تحت قدميه. بعد برهة أمسك ذراعه بيده اليسرى، استدار محنى القامة، اندفع خارجا من العشة المقهى لا يلوى على شيء.

مضى يهرول كالدجاجة المذبوحة. تابعتة العيون الذاهلة إلى أن اختفى فى الممر المؤدى إلى الوحدة الصحية. عندئذ أفاق القهوجى فانفجر باكيا فى فجعية ثم ضرب الهواء بقدمه صارخا: يحرق ديك الكفرة.

ما إن رأيته ينتش بمخالبه في
 لحم الكرسي حتى أمسكت
 بالمسطرة الحديدية وغافلته بضربة
 عنيفة جدا، جاءت فوق ظهره المقبب
 فانحط مبطوشا دائخا يتلوى ثم ما
 لبث من حلاوة الروح حتى
 تجمع وقفز مهیضا ثم اختفى.

العلاب المسندیل

نشأت العلاقة بين القط نور وبينى فى سرعة أدهشت زوجى وعيالى. لقد مكث ما يقرب من أسبوع يتخفى تحت المقاعد وفى أركان خفية فلم يكن يظهر إلا بظهور طيف ابنتى جيهان. لم يكن يأمن لأحد سواها باعتبارهما "معرفة قديمة" .. فجهان كانت تذاكر مع لينا زميلتها فى كلية الألسن، المقيمة معنا فى نفس العمارة فى الطابق قبل الأخير، إنها بنت محمود الأنصارى طبيب المخ والأعصاب الشهير بالزهيد فى الشهرة والمكاسب برغم تدفقهما عليه، هو رجل لطيف جداً، متدين، مفرم بتربية القطط، لديه قطرة رومية عشت من قط سيامى فأنجبت ستة جراء، تلقت جيهان وعدا بواحد منها بعد فطامه، وبالفعل أهداها نور وعمره لا يزيد على ستة أشهر، كان جميلاً بل ساحراً، أبيض فى لون الحليب، يخطر فى مشيته فى كبرياء وثقة ورشاقة كأنه ملك الملوك.. لم أكن مرحباً به فى أول الأمر، لكننى فوجئت به ذات يوم يجترئ على الظهور بيننا عند الغداء، ازداد جرأة، قفز صاعداً ثم مقعياً فوق ترابيزة السفرة يدور برأسه مصافحاً وجوهنا ثم متفحصاً فيها واحداً بعد الآخر، لكنه كان أكثر وعياً وتحضراً منا، فقبل أن ينهره أحد وقف قافزاً إلى الأرض بمجرد رؤيته لأطباق الطعام قادمة من المطبخ فوسع لها المكان من تلقاء نفسه.. باستثناء جيهان كنت أول من ولف عليه: فيما كنا جالسين فى غرفة المعيشة تسلل من وراء المقعد الأسىوطى وداعب أظافر قدمى

المطوية تحتى، قفز فصار فوق ركبتى، تشمنى بلباقة ولطف ثم تكور فى حجرى مغمضا عينيه، ثم ما لبث حتى انتقل إلى حجر زوجى بنفس الطريقة، وهكذا أخذ عينة من أحضاننا جميعا فسجلها فى ذاكرته، ثم صار البيت مملكته ووضح أن كلينا يستلطف الآخر.

كان ينتفض قائما حين أقف، يقفز من مكانه فى لمح البصر يسبقنى إلى مكتبى، فإن رأتى غيرت سكتى هرول عائدا ليمشى فى حذائى، فإن وقفت فى المطبخ أخذ يتسلل بين قدمى يتمسح بهما فى مودة دافئة، فى الحال تقوم فى مخيلتى جدتى نفيسة، كلماتها مثل الكتاب المنزل فى دارنا فى البلد، من أن الققط لا تولف إلا على ذوى القلوب الطيبة لأنها خبيرة بها وبهم تميزهم من بين ملايين البشر، فأشعر عندئذ بزهو داخلى يقارب حالة الرضاء عن النفس، غير أن جدتى نفيسة تتربع فى قعدتها المفضلة فوق قبة القرن لتكمل مقولتها فى جدية مهيبة: "على فكرة يا عيال!! إياكم وإيذاء الققط فإنها أرواح ناس من أهالينا صعب عليهم أن يفادرونا إلى دار البقاء إلى الأبد! لعلها روح أمك أو أختك أو أبيك أو عمك أو خالتك أو أى واحد ممن يحبونك! حينما قبضها عزرائيل وتركها حرة فى رحاب الله تلبست قطة تكون قريبة من أحبائها لتستطيع أن تودهم وربما تحرسهم من الأرواح الشريرة!! إيذاء الققط يا عيال جريمة لا يغفرها الله أبدا! والعقوبة عليها عاجلة قاصمة للظهر فاجعة رادعة عادلة جزاء من تفره قوته على إيذاء كائن ضعيف جميل كالقط يكفيه نبلا وأصالة أنه انسلخ عن بنى جنسه المتوحشين ساكنى الكهوف والغابات أكلى لحوم الفرائس والجيف وانتمى إلى بنى الإنسان! أجدادنا المصريون أنسنوه وأهدوه إلى العالم فبات يتقدم فى الأنسنة وبنو البشر يتقدمون فى الوحشة!!.. يتضح لى دائما أن تعاليم جدتى نفيسة متغلغلة فى أعماقى إذ كنت على الدوام أسلك مع الققط سلوكا حذرا جدا، فطفولتى لا تعترف للققط بأى خبر سار على الإطلاق، دائما أبدا هى خاطفة المنابات من أيدينا وسارقة فراخ الأرناب والكتاكيت

وكاسرة الأواني وكابسة النساء الوالدات فى موسم خصوبتها . طوال حياتى السابقة لم يكن بينى وبين القطط أى عمار ، لم تكن علاقة عدوانية لكننى لم أكن أرحب بوجودها فى البيت وأستهيف كل من يصادق القطط وهى مشهورة فى الخيال الشعبى بعدم الوفاء تأكل وتكر ولا تعترف بأى فضل لمن يغمرها به ، لكننى لم أحاول إيذاءها على الإطلاق إنما قد أهوشها بمضرب الذباب أو بجرنان مبروم على شكل عصا .. إلى أن دخل بيتنا القط نور ، فأدركت الفرق بين قطط الشوارع الشريدة الضالة التى تربت على القنص واللصوصية وصفائح القمامة ، والقطط المتحضرة المتعلمة التى تربت على العزة والكرامة فى رغد من نعيم وتحنان مبدول ، وفى الحالتين إثبات لمقولة جدتى نفيسة إذ لولا وحشة الإنسان وخسته ما ضلت كل هاتيك القطط فى الشوارع ، فى نفس الوقت لولا تحضره ما تسيد القط نور وتدخل .

العجيب أننى برغم أسفى على تعاسة حظ القطط الضالة لم يتحول موقفى تجاهها إلى شئ من التعاطف ، بل صرت منحازا للقط نور ضدها ، أترىص بأى قط شوارعى على بسطة سلمنا لأريه مركزه وأزجره بعنف أحيانا قبل أن يستضعف نور ويعتدى عليه أو يستدرجه إلى الخلاء يغريه بالصياغة على الرغم من يقينى العلمى بأن القط الأليف يستحيل أن يفرط فى مكانه بل يدافع عنه إلى حد القتال مع بنى جنسه .. لقد أصبح القط نور صديقا لى بمعنى الكلمة ، أصبحت إذا نزلت إلى مكتبى فى الجريدة أسأل عنه بالهاتف ، أحيانا هو الذى يرد على التليفون حيث ترفع زوجى السماعه وهو مستلق على صدرها فيهبش فى السماعه يطلق نونوه من فرط التلون الشعورى فى نبراتهما أكاد أترجمها إلى أشواق وضحك وبكاء وأنين شكوى واستغاثة . أصبح هو الرجل الثانى فى بيتى بعد زواج العيال ورحيلهم حتى وإن كانوا يتجمعون فى البيت عندى معظم أيام الأسبوع . من دون الأصوات التى يحدثها دوران المفتاح فى كالون الباب يتعرف على صوت مفتاحى ، أشعر وأنا أبرم المفتاح فى الكالون بقفزته من على بعد ووقوفه خلف الباب مندمجا

فى نونوة طروبة تحك فى قرار صوته تعطيه نبرات إنسانية صرفة. يدخل ورائى حجرة النوم، يرمقنى إذ أغير ملابسى، يتمسح بساقى فى لطف إن رآنى أدلف إلى الحمام الذى آثرت أن يشاركنى فيه بأن وضعت له قصعة ملائنة بالرمل فحين يشعر بالزنقة ينط من أعلى مكان ويدفع الباب بقدمه ويدخل يقعى فوق الرمل يقضى حاجته ثم يقوم ويروح يهيل عليها الرمل بقدميه حتى يدفنها ثم يخرج. وقد اعتاد أن يشرب شاي العصر معى فى الشرفة، يقعى فوق حافتها ذلك الإقعاء التاريخى الأزلى المخلد فى نقوش الفراعنة بتمائيل خالابة لا حصر لها، لكأنه مكلف بمراقبة الحركة فى الشارع، لكأنه يلقننى درساً فى كيفية التأمل، أه لو أملك صبره وصفاء عينيه وتطامنه إذا لأقعبت مثله هذه الإقعاء الحميمة الفاتنة وفتحت كل حواسى وبصرى على هذه الحياة الصاخبة المتدفقة، أه لو أملك مرونته ولياقته فى السير على الحواف، أه لو أملك رقيه وعزة نفسه وميله الفطرى إلى المرح والممازحة والمناكفة والمشاكسة والتنطيط واللف حول نفسه يريد الإمساك بطرف ذيله وبإصرار لا يوقفه إلا انشغاله بشيء مفاجئ.

فى الليل يؤنس وحدتى فى المكتب، أفتقده إذا انشغلت عنه لفترة طويلة دون أن أراه. كثيراً ما أمسح البيت كله شبراً شبراً وأزحف على بطنى ناظراً تحت الكراسى والأسرة والدواليب والنمليات بحثاً عنه فلا أجده، ينخلع قلبى وأوقن من اختطافه، حتى إذا ما طلع النهار ووضعت زوجى صينية الفطور على ترابيزة السفرة، أسحب الكرسي من تحتها لأجلس عليه، أفاجأ بسيادته متكوراً على نفسه مستغرقاً فى نوم عميق عميق، أسب ديكه وديك الذين خلفوه ثم أزيح الكرسي إلى الداخل وأسحب كرسيًا آخر، فما إن أشرع فى تناول الفطور حتى أفاجأ بسيادته قد تسرب من تحت بوز الرخامة البيضاء وتمطى وأقعى أمامى يتشاءب ويرمقنى من عينين معمصتين فيهما لطف وذكاء وبراءة وتواطؤ حميم على التسامح والأريحية، وإذ يجد نفس الشاعر فى عيني لا يجد بأساً ولا حرجاً فى أن يأخذ حمامه أمامى، يروح يلحس فروته فى كل

بقعة من جسده ظهراً لبطن لذيل لعنق للوجه والعينين حتى يلمع بالفعل ويبدو كأنه استحم في حوض بالصابون المعطر، عندئذ تتسع عيناه ويموء بلهجة ذات معنى في طلب الطعام.. في الليل وأنا أحاول الاحتشاد بالمعلومات والخواطر والأرقام والقراءات استعداداً لكتابة مقالى الأسبوعى للجريدة، ما أكاد أعتدل على السكة الصحيحة فى السياق الصحيح بعد طول شطب وتمزيق حتى أراه يناور، يدبر لاقتحامى، يشببط فى رف قريب، يقف على حافته، ينط منه إلى منضدة التليفزيون فى موقعها المواجه للمكتب، يصعد فوق التلفاز، بقفزة سريعة يصير متربعا فوق الورق الذى أكتب عليه، برأسه وكتفيه يزيح يدي عن الورق ويقع فوق السطور التى كتبتها ثم ينظر فى اللاشئ ثم يحدق فى عيني بنظرات فيها شقاوة وسخرية، يكاد يلكرنى فى عشم وأخوة قائلاً: "سيبك من وجع الدماغ ده ما حدش واخذ منها حاجة"، أكاد أطاوعه لكننى سرعان ما أفزع من انسراب الوقت فأزيحه برفق مرة ثم بخشونة مرات وهو كالصديق الفتيت يأبى إلا أن يفور دمي بهزار ماسخ ليس الوقت وقته، فأحمله بالقوة وألقى به فى حجرة جيهان وأغلق عليه. على أن هذه الصداقة سرعان ما تصدعت. انتهت ذات يوم إلى أن مقاعد الأنتريه الكلاسيكى الطراز العزيز على نفسى ونفوس أسرتى، والذى لا يمكن تعويض تنجيده بهذه القماشة بهذه النقشة التى لرصانة جمالها وما فيها من فن فى النقش وفى النسيج معا ترفع من قيمة الأنتريه إلى ما شئت من تقدير.. فوجئت بهذه القماشة وقد صارت بفعل التتيش الحاد أشبه بالكنافة، ساحت فيها أشكال الرسوم صارت بطشا من ألوان همجية مندلقة فوق بعضها، لكأن سكيناً اندك فى قلبى، فأنا من مقدسى الأشياء وهى تعنى بالنسبة لى مشاعر وعلاقات وأزمنة ومعانى ورموزاً كثيرة، بكيت.. جال بخاطرى أن لو كان ابن من أبنائى أو حفيد من أحفادى طعننى فى هذا العزيز على قلبى وشووه هكذا لكرهته.. يا للفعجية، كراسى الصالون وكراسى السفارة وغرفة المعيشة كلها قد شوهت.. عندئذ توترت العلاقة بينى وبين نور، أدرك هو أننى

تغيرت نفسيا من جهته، فراح يتمهل قبل أن يقدم على أى فعل، كان مفرما بالتسلق إلى آخر حافة الكتب القريبة من السقف، فتدركه زنقة الغائط، فيقفز قفزة عشوائية يعقبها دوى انفجار، صف من المجلدات قد هوى إلى الأرض كاسحا ما فى طريقه من تحف وطفائيات وفازات وأكواب وربما أطفال. تكرر هذا الفزع عدة مرات وتكرر ضربى له بمضرب الذباب، فأصبح يتسلل متدرجا فى القفز خلسة، ثم يتذكر أنه سيعاقب، فيتوقف متوجسا يختلس النظرات إلى فى مراوغة إنسانية كالأعنان يريد استغفالى لدرجة أنه يوهمنى بأنه قد صرف النظر إلى أن أسهو عنه، فما إن أفزع فيه حتى ينط مبتعدا. ويبدو أنه كان على يقين من أننى غير جاد فى تهديداتى، فكان هو الآخر يمثل أنه خاف وجرى لكنه ما يلبث حتى يتوقف بعد قفزتين ويستدير محمقا فى عيني لأعقا شواربه بلسانه فيخيل إلى أنه يبتسم ليستدرجنى إلى العفو عنه. فيما مضى كنت أفعل أما اليوم فلا أطيق صبرا، ما إن رأيته ينتش بمخالبه فى لحم الكرسي حتى أمسكت بالمسطرة الحديدية وغافلته بضربة عنيفة جدا، جاءت فوق ظهره المقبب فانحط مبطوشا دائخا يتلوى ثم ما لبث من حلاوة الروح حتى تجمع وقفز مهيبا ثم اختفى.

كرهت نفسى فى الحال. أبدا ما كنت أتصور أن يكون فى داخلى مثل هذه الخسة الغادرة، ظل نور مختفيا تماما لعدة أيام تعذبت فيها أشد إيلا ما مما لو كانت الضربة قد أصابتنى أنا، جاءت جبهان فظهر يعوى بصوت يمزق القلب بقسوة. لم يهدأ لى بال، ولم يختف شبح جدتى نفيسة، إلا بعد أن عالجه الطبيب حتى استرد عافيته وحضوره الكامل، إلا شيئا واحدا رفض أن يسترده، صداقتنا، لقد انتهت من جانبه تماما ولم يعد يأمن جانبى ولو لبرهة عابرة، صرت كالموت فى نظره، ما إن يرانى حتى يفزع ويثير دربكة وفوضى فى طريقه إلى الاختباء ثم يظل مختفيا إلى أن أختفى أنا من المحيط الذى يظهر فيه. كان هذا يؤلمنى بل يكاد يقتلنى من فرط الشعور بالضعفة حتى اعتقدت أن هذا هو الانتقام العادل العادل الرادع الذى تقصده جدتى نفيسة، وقد استطبت

استمرأه لبعض الوقت لعله يريحنى من تأنيب الضمير بكونى
دفعت الثمن، لكننى لم أحتمل، رجوت ابنتى جيهان أن تأخذ نور
وتعيده إلى صاحبه حتى لا يعذبنى أو أعذبه.

اختفى نور من حياتنا، جاء من استطاع معالجة طاقم الأنترية
الذى بدا كأنه قد كبر فى العمر خمسين عاما. لكن المدهش أننى
وزوجى بعد مرور ما يقرب من عشر سنوات على طردنا لنور، بدأ
الحنين إليه يغزونا، صارت زوجى تذكرنى بحركاته ونواذره،
وأذكرها بحواراته الليلية معى، ثم نضحك فى صفاء، فلما لاحظنا
أنه بات يمثل لحظات الحميمية فى فراغ أيامنا الراهن أوحى إلى
زوجى بأن أسأل عنه ولو من باب الوفاء. شكر الطبيب سر نور
الباتع الذى جعلنى أهاتفه على غير توقع ثم أسمعنى صوته فى
الهاتف ثم قال فى أريحية: "تحت أمرك إذا عايزه تعال اسهر معا
وخده وأنت ماشى". فتح الرجل باب شقته فدخلت داخلا إلى
حضنه مباشرة حيث عانقته فى اشتياق، لحظتها كان القط نور
يرقبنا من فوق الكرسي فيما يشبه الشعور بالبلبله وعدم الفهم،
لكنه ما لبث حتى أصابه الهياج، صار كالفار فى المصيدة يجرى فى
كل اتجاه يتعثر متخيلا فى رعبه ثم اختفى.. وإلى أن خرج الرجل
يوصلنى إلى المصعد فى منتصف الليل لم يكن نور قد ظهر.. خيل
إلى أن المصعد يهبط بى إلى قاع سحيق من الهوان والبؤس.
تجاهلت دهشة زوجى من منظرى، سبقتها إلى الداخل حتى لا ترى
دموعى الهاطلة، فلما لحقت بى ورأتها غطيت دموعى بابتسامة
كسيحة، وقلت بسخرية مفتعلة: الملعون مارضييش بييجى.

يا.. يا للجنون.. باب الدار
 مفتوح، الأسطى شافعى فوجئ
 بنا وهو يخطو خارجا من عتبة الدار
 إلى الحارة، وكانت روحية الابنة
 الكبرى لمخوف تجرى نصف عارية
 إلى السلم الظاهر لنا فى الدهاليز، ثم
 تتسلقه كل ثلاث درجات فى
 قفزة واحدة.

العفاريث الفرس نسكننا

اشتهر الأسطى شافعى أبو السعود . الذى يدير مكنة الطحين الوحيدة فى بلدتنا . بأنه رجل "ذيله نجس"، يحتل بطولة أكثر من تسعين فى المائة من حوادث المغامرات الغرامية ونوادر العشق والعشاق فى بلدتنا ونواحيها المتاخمة للبرارى.. وكلها حوادث من فرط غرايتها وكثرتها تكاد تكون محض خيال فى خيال. وقد اعتاد عقلاء البلدة أن يسمعوها بشغف كبير جداً على الرغم من يقينهم بأنها فى مجملها غير قابلة للتصديق وإن كانت مصدر تسلية يداعب خيال الجميع الميالين بالفطرة لسحر هذه المغامرات، ولو بالاستماع، وفى نفس الحال تقررصهم التسلية فى قلوبهم قرصات موجعة إذ لا بد أن يمر بغواطرهم عند استجلاء هذه الشائعة أو تلك ذلك الشعور بأن أعراضهم جميعاً قد لا تصبح بمنجاة من التلوث فى ظل انتشار هذه الشائعات التى تتسع يوماً بعد يوم فتجد رواجاً وتشجيعاً وتصديقاً فى معظم الأحيان.

الحاج عبد المجيد يعقوب، الضرير، مؤذن الجامع الكبير، المحترم من شدة ورعه واتساق ظاهره مع باطنه، يمر فى طريقه إلى الجامع بمصطبة مخلوف الطلابى المتاخمة للميضية، فيجلس معنا قليلاً فى انتظار موعد الأذان، يتجههم كلما سمع نادرة من نوادر الأسطى شافعى، لا تتصاع أذنه وراء المتحدث، لا يميل نحوه للإنصات بشغف وتحفز للمشاركة فى الحكى كما يفعل غيره من سائر الناس، بل يضحك بعمق، يتحول الضحك فى صوته المتحفظ

المكتوم إلى ما يشبه دقات الهاون برنينها العميق المكتوم معا . وبعد أن يفرغ ما فى صدره من ضحك يتلقف أنفاسه وينبض المرح فى ملامحه الطيبة المبرقشة ببقع من أثر إصابة قديمة بمرض الجدري، يدق الأرض بعصاه فتتراقص من حولها مسبحته اليسر الطويلة على فتافيت نغم نشوان تصوره حباتها فى اصطدامها بالعصا هبوطا وصعودا، مرددا: "والله ما يزنى سواكم! لا يرتكب المعصية حقاً إلاكم! يا ناس! كفوا عن هذه الحواديت والنكت! أنتم بكل صراحة تنتهكون فيها أعراض ناس يعلم الله وحده إن كانوا زناة حقاً أم أبرياء!" .

يداعبه العبد الأسود أبو النوم . المعتوق جده من عائلة طلبية الكبير . بخفة ظله التى طغت على شخصيته فوضعت بين من لا يقع عليهم الحرج فيما يقولون، إلا أن القوم لهم مصلحة فى رفع الحرج عنه كالبهائم والأطفال وفاقدى الرشد، إذ إنه كثيراً ما يقول ما يتحرج القوم من قوله صراحة، إنه وهو المرفوع عنه الحرج، يرفع الحرج عنهم بقول ما كانوا يودون قوله لولا الخوف من المسئولية الجنائية الجسيمة . إنهم فى تشجيعهم لـ "أبو النوم" يفتحون ثقباً فى الضمير العام لأهل بلدتنا، تنفذ منه الأحقاد والأضاليل لتحويل دفاف الأمور إلى مسارات تخدم المصالح الشخصية، يتولون التكريس لعدم أهلية أبو النوم والدفاع عنها وعنه بحرارة، إذا ما أراد أحدهم أن يثار لشرفه أو سمعته أو لكرامته من لسانه الفلتان، فسرعان ما يلتفون حول هذا الأحد يخدرونه يداعبون غروره بأنه هو الأرجح عقلاً والأكبر مقاماً، ولا يصح أن يعمل عقله بعقل هذا الولد عديم التربية الصايع الضايغ .. العجيب أن من كان يخادع نفسه فى طلب تهدة الآخر الثائر وهو فى ضميره قانع بأن من حقه أن يضرب هذا الولد المأقون بالنار، أو حتى الجزمة القديمة، يرى نفسه مقهوراً على الامتثال لتهدة الآخر له عندما يخوض لسان أبو النوم فى لحمه بنفس الطريقة يسوق العبط على الهبالة على المسكنة عند اللزوم إذا شعر أن غلطة لسانه البشعة قد تعالجها صضعة على وجهه أو ركلة فى

مؤخرته وينتهى الأمر.

يرد أبو النّوم على الحاج عبد المجيد بلهجة تتضح خبثاً ولؤماً: "يا حاج عبد المجيد إن كلاب حارة العزايضة استجارت منه كل ليلة تزفه وهو ينط على سطوح الناس".

يعرف القاعدون على مصطبة مخلوف الطلباوى اللصيقة بداره ودكانه أن هذا التخيل المسموم ليس من خيال أبو النّوم إنما هو نفثات ونبرات مخلوف الطلباوى تاجر الفراخ، يعرفون كذلك أن مخلوف مصيبة كبرى فى العشق والخلبصة، إنه يعتمد فى بيعه على أسواق بلدتنا والبلاد المجاورة ينتقل إليها بالركوبة العفية يتوازن فوقها قفصان كبيران مليئان بالبرابر والبلايين، التى يربيهما فى داره بخبرة عائلية موروثة، هو ليس محظوظاً فى تربية الفراخ فحسب، إنما هو محظوظ كذلك فى النساء، وحيث إن تعامله فى الأسواق وفى كل مكان يحصر زياته فى دائرة نسائية، ولغة الفقس والتكسير والديوك والشمورت والعقاقى هى لغته الوحيدة فى حياته، ولشدة مرونته وأريحيته فى البيع الشكك لنساء بأعيانهن يمد حبال صبره الطويلة معهن فى الدفع بالأجل، فقد نجح فى أن يكون له فى كل بلدة عشيقات من أرامل ومطلقات وفتيات لعوبات يكسب أموالاً كثيرة يصرف ثلاثة أرباعها على تهيئة مزاجه كل ليلة للمضاجعة مع واحدة أو أكثر فى أكثر من خن وأكثر من خرابة بل وأحياناً فى هديم كنيسة أو ضريح شيخ مهجور، هذا أمر يعرفه كبار القوم فى بلدتنا، منهم من أمسك به متلبساً ذات فجرية، منهم من أدركه ممسوكاً فى إحدى العزب المجاورة، فساعده على النجاة من القتل، ولكن أهل بلدتنا المؤمنين بأن الله حلیم ستار يكتمون الخبر فى صدورهم درأاً للفضيحة فكيف بهؤلاء القوم أنفسهم يسكتون عن هذه الشائعات التى تتضخم جاعلة من الأسطى شافعى ثورا هائجاً ومن نساء بلدتنا عاهرات؟ هكذا سأل واحد من العامة من جلاس المصطبة، موجهاً السؤال إلى الحاج عبد المجيد يعقوب، فابتسم الرجل وبان عليه حرج شديد، لكنه قال: "الحقيقة يا ولدى أننا قوم معطوبون: نقوم بالواجب ثم نفسده

بالمنظرة، تؤدى الفرض ثم تنقضه فى الحال بالخطيئة! نحن قوم زائفون مع الأسف نتحلى بالفضائل لنغطفى زيفنا! لو كنا نؤمن حقاً بأن الله حلیم ستار ما انتشرت هذه الفضائح! الواحد منا يصنع المعروف ويعلمه يمنع فضيحة ويحكى لغيره كيف منعها دون أن يدرى أنه قد صار المصدر الموثوق للفضيحة!.

فى مندرتنا حيث أبى وأعمامى وصحبهم من عليّة القوم . ينبذون الفضائح لكنهم يؤكدونها ويثبتونها باتخاذهم لها كمدخل واقعى للوعظ، واللوم والتذكير بعقاب الله، يقولون مثلاً إن مخلوف كل خلفته بنات وسوف يقعد لهن ما يرتكبه أبوهن من ذنوب. يقولون كذلك إن مخلوف الطلابوى نجح فى تحويل الأسطى شافعى إلى حدوته مثيرة يشغل بها البلد، عن فسقه وفجوره، فى نفس الوقت يقول الشيخ عبد المقصود زائر مندرتنا الحاصل على عالمية الأزهر الشريف: "ولكن لماذا لا يكون مخلوف الطلابوى محقاً فى حواديته التى يشيعها عن الأسطى شافعى عن طريق الولد الصايغ أبو النوم؟"، وإذ ينتبه إليه الحضور يمسح لحيته ويستدرك فى هدوء وروية.

"الأسطى شافعى غريب عن بلدتنا وهذا ما يجب أن نضعه فى الاعتبار! ثم إنه ولد حليوة! فتى الجسد! ومن يراه فى ماكينه الطحين مرتديا العفريتة الزرقاء ويمشى مختالاً ووجهه ملطخ ببصمات من شحوم، وشعره الغزير متهدل على جبينه كنجوم السينما، ينقبض قلبه توجساً! فالولد فعلاً فيه جاذبية للنساء!.. رأيت هذا بعينى، نساء يتملقنه بعضهن يتهاوشن فى تقصع بلا حياء! لكن الحق لله الولد مؤدب كل الأدب!.

إذن فمندرتنا أم العقلاء لا تحسم شيئاً ولا تقول رأياً مجدداً فى شىء، فينصت الناس إلى ما يدور على مصطبة الطلابوى فيطورونه فى خيالهم مستمتعين باللذة أو بالحقد أو بالتشفى فى ناس أو بالزهو بأنفسهم وحينما أشار أبو النوم إلى كلاب حارة العرايزة تحفز الجميع للاستماع، وكان واضحاً أن الحاج عبد المجيد يعقوب قد فهم أن أبو النوم يرمى بفمزته إلى صبيحة المالية زوج خليفة

الأصفر أبو علة المكتوم فى القاعة منذ عشر سنوات كالرميم، مما جعل الكثيرين يطمعون فيها، ولأنهم غير واثقين من قدرة امرأة شابة على العيش بدون رجل طوال عشر سنوات محتفظة بشرفها، فإنهم بخيالهم المريض قد راحوا ينسجون حولها الحواديت، وعلى رأسهم مخلوف الطلباوى نفسه الذى يعلم الجميع أنه اشتغل عليها طويلاً، فلم ينل منها غير الصد والتهزىء ومن يومها وهو مصمم على مرمطة سمعتها فى الأرض حتى ترضخ لنزوته الدنيئة.. هدرت ضحكات الحاج يعقوب ثم هتف: "استغفر الله يا عبد الشؤم، لا تكن حماراً يركبه مخلوف وينخسه بمسامير مسمومة!.. كلاب حارة العزايذة أكثر وعياً منكما! تعرف إن الست اللي بالى بالك طيبة وغلبانة، وربنا يقدرها على صيانة عرضها! ثم إنها كلاب منكسرة هى الأخرى لا تهاجم أحداً بل إنها مستعدة لأن تأخذ الزائر من يده وتوصله بنفسها إلى الدار التى يطلبها".

هكذا تترادف الليالى، من فرط تشابهها، لا نكاد نعرف مواقعها من العدد، ولا مواضع الحواديت منها، فالشائعة سرعان ما تصبح حدوتة، والحدوتة ما تلبث حتى تستقر كأنها واقع قد حدث بالفعل، وليس من السهل محوه من ذاكرة الليالى، حتى بات الأسطى شافعي كاسراً عين جميع الرجال فى بلدتنا لمجرد أن فلاتياً فاسداً كمخلوف الطلباوى قد خلق منه أسطورة تشغل الناس ليمارس هو فسقه وفجوره فى النساء، وفى بيع الفراخ المضروبة. وكنت كمعلم فى مدرسة البلدة الإلزامية أرى فى عيون العيال فى الفصل بذور أسئلة قلقة حول هذا الأسطى، وقد أذهلنى أن سمعت العديد من نكت يرددها التلاميذ عن ثور هائج أطلقه العمدة لكى ينططه على العاهرات تنكيلاً برجال البلدة المناهضين له، وفى نفس الوقت يقبض من ورائه أجراً، كل النكت تدور حول هذا المعنى بصورة متعددة، ونظراً لخطورة الأمر اجتمعنا بناظر المدرسة وقدمنا شكوى جماعية إلى مباحث المركز، التى اهتمت بالأمر، فجاس رجالها فى بلدتنا عدة أسابيع، انتهت بتأشيرة تقول إنه لا يجوز لها القبض على مواطن وتقديمه للمحاكمة بناء على شائعات لم تثبت

صحتها على الإطلاق، منذ ذلك اليوم كان الأسطى شافعى قد بدأ يستقر تماماً فى البلدة ويستأجر بيتاً نظيفاً بدلاً من المبيت فى عشة الخفير الملحقة بالماكينة، بدأ يستحم ويمشط شعره وبدلاً من العفريتة الزرقاء يلبس قميصاً وبنطلوناً نظيفين كالأفندية، يتجول فى شوارع بلدته فى أوقات فراغه، وأيام راحته الأسبوعية، انضم شكلاً إلى الأعيان من كبار الملاك والمشايخ والعلميين وطبيب الوحدة الصحية وباشكاتها، بل كان يتفوق عليهم جميعاً فى أدبه، حلاوة لسانه، لباقة، أناقته ونظافته الدائمة لدرجة أن عائلات كثيرة لم يكن لديها مانع من الترحيب به إن هو تقدم لخطبة إحدى بناتها، إلا أنه بعد ذلك بقليل لم يعد محتاجاً لأن يتقدم لأحد، لقد فوجئ بأن جميلات كثيرات أصبحن ينظرن إليه نظرتهم لفارس الأحلام الفتى الأسطورى، وأن عاهرات كثيرات يتمسحن به، ويدبرن معه لقاءات سرية فى بيته الذى استأجره من بابه فى مدخل البلدة، محاطاً بظلام وكان سمار الليلالى من أمثالنا يرون العجب، والبعض منا كان يشكو لغيره فيفاجأ بأن غيره قد رأى ما هو أعجب.

شيئاً فشيئاً بدأ الأسطى شافعى يجاهر بفروسيته، يسلم على النساء العاهرات والفتيات فى الشارع وفى مكتبة الطحين دونما حرج، يغازلهن عياناً بيانا، وقد يمد يده ليداعب فى جراحة، فلا يجد منهن صداً ولا من الرجال استنكاراً أو رفضاً بل تبليداً، ربما خوفاً من العمدة الذى يهددهم بأنه لو فرط فى هذا الأسطى تتوقف المكتبة وتضطرب البلدة للسفر إلى بلاد بعيدة تحمل طحينها، وربما لأن الأمر أصبح اعتيادياً طبيعياً غير لافت للنظر بل أن يثير حفيظة أحد، أو نخوة أحد وذات ليلة كنا جالسين على مصطبة مخلوف الطلابوى تنتظر صوت أذان الفجر، فإذا بنا نسمع صواتا مضروعا، ما لبث حتى انكتم فى الحال، كنا ثلاثة فحسب مخلوف وأبو النوم وأنا، رحنا نلتفت بحثاً عن مصدر الصوت، كانت نظرات مخلوف تحوم حول دار ابن عمه المهجورة، منذ سفره للعمل فى مصنع للكبريت بالإسكندرية الدار لصق الدار، السطحان متشابكان

متصلان، وإن كان باب دار ابن العم يفتح على حارة خلفية سد، ليس فيها من أبواب سواء، وبناته كثيراً ما يذاكرن في هذه الدار المهجورة، يكفي أن يتخطى الواحد السطح إلى السطح، وينزل من فتحة السلم إلى داخل الدار يبدو أن مخلوقاً قد سمع صوتاً يشبه صوت إزاحة سقطة الباب من الداخل، فانتفض قائماً يهرول، هرولاً وراءه إلى الحارة السد الخلفية.. يا.. يا للجنون.. باب الدار مفتوح، الأسطى شافعى فوجئ بنا وهو يخطو خارجاً من عتبة الدار إلى الحارة، وكانت روحية الابنة الكبرى لمخلوف تجرى نصف عارية إلى السلم الظاهر لنا في الدهاليز، ثم تتسلقه كل ثلاث درجات في قفزة واحدة.

حينما أفقنا من الذهول واسترد مخلوف عقله ورشده كان الأسطى شافعى قد نجا من التلبس واختفى أغلقت بنفسى باب الدار، سحبت مخلوف عائداً به إلى المصطبة وأنا أكتم فمه بيدي كتما للفضيحة قبل إعلانها، كان مخلوف يرتعش ويبكى ويحاول شق هدومه، وأنا لا أكف عن تحذيره من أن يراه المصلون على هذا النحو راح ينظر من تحت لتحت إلى أبو النوم في توجس ثم قال له خلال البكاء فى جدية مخيفة.

”لو فتحت بقل بكلمة على الطلاق بالتلاتة أقتلك!“

لكن الذهول كان قد أغلق فم أبو النوم ربما إلى الأبد، قمنا فتوضأنا وصلينا الفجر حاضراً فى الجامع الكبير، ثم جررت مخلوف إلى المصطبة حتى لا يثير فى داره فزعاً لا تحمد عقباه، ظللنا مرمين على المصطبة غارقين فى صمت مطبق، وشروء حتى طلعت الشمس، وتمدد أبو النوم فى مطرحه فاستغرق فى النوم وفجأة زفر مخلوف من قعر بطنه ثم استغفر مصفقا كفا على كف ثم التفت لى قائلاً وقد بدا على وجهه أنه على مشارف الجنون.

”الى شفناه ده حصل فعلاً يا سيد افندى؟ ولا كان حدوتة من حواديته، واتهيا لنا إنها حصلت قدامنا؟! وحية والدك تتورنى يا سيد افندى قبل ما يجينى لطف!“

لويت بوزى فى أسف.. ذلك أننى كنت واقعاً فى نفس الالتباس.

كيف بحق الله احتمل كل هذا
 المشوار؟.. لكانه يتعرف الآن على
 شخصيته من أول وجديد؛ خرج من
 صالون الحلاق فتى مشدود الملامح
 بتسريحة شعره الشبابية على
 الدوام؛ العطر الثمين يفوح من ثنايا
 الجاكت الكحلى الذى سوف
 يتماهى مع التأثير الكحلى..

الخروج من المذلة

يرن

الهاتف عشرات المرات فى بيته طوال النهار والليل فلا يعبأ به؛ ليقينه أن من يهمله الرد عليهم سيطلبونه على هاتفه المحمول؛ لكنه فى ذلك اليوم شعر بأن رنين الهاتف يقصده هو على وجه التحديد. لحظتها كان جالساً إلى مكتبه مستغرقاً فى مراجعة رسالة للدكتوراه كتبها تحت إشرافه أحد طلابه فى كلية طب القصر العينى.. خفق قلبه؛ توجس؛ الرنين يتكرر بإلحاح متواصل يشير بأن أحداً لا يوجد جنب الهاتف فى غرفة المعيشة. تذكر أمه فى البلد راقدة تحت عُمر يفوق الثمانين عاماً؛ آخر مرة زار البلد كانت منذ شهر مضى؛ دخل ليسلم عليها قبل سفره؛ أحاطت يده بيديها قائلة بصعوبة شديدة؛ يا عالم إن كنت حاشوفك تانى ولا... لم تشأ إكمال الجملة؛ فأنحنى عليها وغمرها بقبلاته.. شعر بلسعة تأنيب لإبطائه فى رفع السماعاة الفرعية المثبتة فى ضلع الرف الخشبي للمكتبة على يساره لعله يؤجل مواجهة ما يحتمل أن يكون خيراً قاسياً. ما أن مد يده لرفع السماعاة حتى سكت الرنين؛ الغيظ سكين إندب فى صدره؛ لكنه نسى الألم حين جاءه صوت البت فتحية الشغالة ترد من سماعاة المطبخ بلهجتها الفلاحية: أقول له مين حضرتك؛ عارفة حضرتك من بلدنا؛ رمى بالقلم الرصاص فى الأخدود الفاصل بين الصفحات تأهب لتلقى خبر فاجع قد يؤدى إلى تأجيل مناقشة هذه الرسالة التعسة التى تأجلت مناقشتها عدة مرات حتى تشاءم منها كلما قطع شوطاً فى

مراجعتها برغم استمتاعه الشخصى بجهد الباحث وأسلوبه ومنهجيته؛ صاح بصوت مكروب: مين يا فتحية اخلصي؟ فإذا بفتحية صارت أمامه تتحنى لتضع فنجان القهوة الذى نسى أنه طلبه منها؛ بيدها الأخرى قدمت له السماعة: ست تهانى هانم يا سيدى!؛ شد السماعة بعنف: قلت ميت مرة بلاش زفت سيدى دى! ما تعرفيش تقولى يا دكتور؟.

صوت تهانى يتساقط من السماعة قبل وضعها على أذنه؛ فى نبرة حميمية باسمه عميقة الرنين بلمسة من سخرية محببة: لسه زى ما أنت بتؤمن بالعدالة والمساواة؟ بشرة خير يجب الثبات على المبدأ مع إن كل المبادئ إنضريت واتمرط بيها الأرض!.

يبين لذة الإستقامة لهذا الصوت وتأجيل التفكير فيما وراء اسم صاحبه لمزيد من الاستمتاع بمثل هذه النافورة العاطفية السخنة التى كانت أضمحلت من حياته طوال ما يقرب من نصف قرن من الزمان؛ وبين اقتراب وجهها من السضور فى مخيلته بجماله ورقة تقاطيعه السهتانة التبتئية بلوحة الموناليزا، كانت شخصيته التى يشعر بأنها الحقيقية الأصلية فيه، والتى كان واثقاً أنها تكاد تكون قد انطمست منذ أن دخل فى قناع الأكاديمى الأستاذ الجهبذ الزميل للجهايزة فى الجمعيات والمحافل الطبية العالمية عبر رحلة كفاح مضنية من دكتور إلى أستاذ إلى رئيس قسم فعميد فنائب رئيس الجامعة ناهيك عن شهرة عريضة جدا فى أسواق المرض وكبريات المستشفيات فاقت شهرة عادل إمام وعمر الشريف فى الفن؛ ومن يوم إلى يوم تزداد سطوة هذه الشخصية الأكاديمية العملية العامة؛ يزداد سُمك الجدران الداخلية التى تتقلص فى سجنها شخصيته النقية المرحة الباحثة عن قيم وأمثال اتضح له مبكراً أنها مجرد يوتوبيا من الأحلام عسوية على التطبيق فى أى ظرف فى أى مكان..بقى مستسلماً لأصداء الصوت الأنثوى الهادر قد أنضجته السنون واخصبت نبراته مشاعر من تجارب هائلة فازدادت أشعته القديمة نفوذاً إلى داخله؛ إنه صوت داخلى فى نسيجه الإنسانى والعاطفى منذ أن كان طفلاً فى السادسة من

عمره يبكى ويصرخ حتى يسمحوا له بحمل بنت الجيران الجميلة كاللعبه فكانوا يُرعبونه ويضعون الطفلة الوليدة على حجره ويتفرجون عليه وهو يقلد أمه فى هز ركبتيها لتهشيك الأطفال ويُصدر أصواتاً تلهيها عن البكاء فمن عجب أنها كانت تكف عن البكاء فعلاً وتحملق فى وجهه بعينين باسميتين.. صوتها فى الهاتف نجح فى تكسير حوائط سجن القناع؛ اندفعت من القمقم شخصية كانت ذات يوم بعيد خفيفة الظل إلى حد الشهرة أينما حلت؛ بل هى السبب فى هذا الحب الذى يلقيه فى كل مكان إذ إنها تبرق فى الأزمات وفى المواقف الصعبة فتقنع الجميع بمدى أصالته وطيبه قلبه ونقاء سريرته؛ هذه الشخصية المرحّة كانت مع ذلك مصدر خوف وهلع من عائلته الموسرة ومنه أيضاً على نفسه، من أن تستفحل خفة ظله فيتحوّل إلى مهرج، على الأقل سيستهزئ به الناس ويُفقد هيئته كدكتور وأستاذ يجب أن يكون مثالا وقدوة فى الاحترام والرصانة والجدية.

فى نزق حميم نط المهرج القديم، الطالب بمدرسة طنطا الثانوية الذى يقضى الإجازة الصيفية فى بلدته المنشأة الصغرى.. هتف من قلب صفاء اليقين، قلب عاشق هاجه وجع قديم: تهااااا! مش معقول! لكن المهرج المرح سرعان ما ناء بثقل الوجع القديم فحبطت مشاعره المتدفقة وتاهت فى تلايف المشهد الذى كان نبعا للألم: فور تخرجه فى الجامعة تقدم لخطبتها؛ أبوها الحاج أنيس تلاءم، قال إن أهالى البلدة كلهم يعرفون قصة حب مأمون شافعى لتهانى أنيس بل إن هناك من ألف الأغاني والمواويل فى حبهما ولهذا بالتحديد فإنه يعتذر عن قبول الزواج لأن فى قبوله تسوؤ لسمعة البنت وسمعة الأهلين على السواء، سيتصور الناس أننا رضينا بالزواج ستراً لفضيحة! كان منطق غيباً ولكنه كان أغبى، إتضح انه ينوى تزويجها من ابن عم لها معار فى دولة الكويت بأموال طائلة؛ وقد تم الزواج بالفعل فى غضون أشهر قليلة حيث سافرت تهانى إلى الكويت واختفت من حياته تماماً، وطوال الأربعين عاماً الماضية كانت تبلغه بعض أخبارها، من قبيل أن

زوجها مات دون أن ينجب وأنها لم تفكر فى الزواج بعده، آخر ما سمعه عنها أنها عادت إلى مصر وتفكر فى مشروع استثمارى مربح..

حينما انتبه إلى أن سلك التليفون يكاد يقلب فنجان القهوة كانت تهانى لا تزال تتحدث بصوت خافت مسترخ، ومن حين لآخر تقطع الحديث هاتفة: ألو فيرد: معاكى. رشف القهوة دفعة واحدة ثم تلمظ وأشعل سيجارة؛ إنتبه إلى أنها تتحدث عن الشقة اللقطة التى حصلت عليها فى حى شبرا حيث أقاربها وأخواتها يسكن فى نفس العمارة مع أزواجهن من كبار تجار شبرا، وأنها لم يعد يشغلها شئ فى الدنيا سوى مطلب واحد أن تراه فوراً وبفارغ الصبر ليطفى أشتياقاً تشتعل ناره طوال أربعين عاماً. عاد الفتى المرح يهتف مزهواً مغتبطاً: قوللى فىن وأنا أجيلك فوراً!. قالت بأنثوية عريقة منشوقة: تعالى خدنى بعريتك من شبرا! ولما تتقابل نشوف حنقعد فىن وحنعمل إيه! الدنيا ليست تسعه من الفرحة، سيطرت شخصية الفتى المرح الشهوان للاشتياق إستردت صفاءها وأريجيتها: فىن فى شبرا؟ وصفت له ميدان الخازندار، حددت اسم المقهى الشعبى الكائن فى صدر الميدان، إذ إن العمارة فى مواجهة المقهى فإن جلس على رصيفها سوف يراها وهى خارجة من باب العمارة لتعبر الميدان وتمر من أمام المقهى رائحة جائية مرتين وتلك هى العلامة فوق أنها سترتدى تاييرا كحلى اللون.

استحلى المغامرة، استيقظ الحب كاملاً، يا للفرابة حقاً، أبداً أبداً لم يعيش مثل اللحظة البديعة من قبل: أن يتواعد مع الحبيب على لقاء؛ يا لها من مشاعر طازجة خلت منها حياته طوال أربعين عاماً، فى الصباح تجنب النظر إلى كل من يلتقيه ممن حوله فى البيت؛ نسى أنه جد لخمسة عشر حفيداً من ثلاث بنات وولدين أنجبهم وانكب على العمل من أجلهم كالثور المعلق فى ساقيتين: العمل فى الجامعة بغير هوادة لتحصيل الشهادات والألقاب والأوسمة العلمية، وساقية كسب المال الوفير من عيادات ومستشفيات لا تهمد.. لم يعيش لحظة واحدة لنفسه، كيف بحق الله

احتمل كل هذا المشوار؟.. لكأنه يتعرف الآن على شخصيته من أول
وجديد؛ خرج من صالون الحلاق فتى مشدود الملامح بتسريحة
شعره الشبابة على الدوام؛ العطر الثمين يفوح من ثيابه الجاكت
الكحلى الذى سوف يتماهى مع التايير الكحلى..

ركن سيارته فى الميدان وجلس على رصيف المقهى بين الناس،
راح يترقب باب العمارة، ما أكثر من خرجوا ودخلوا إلا لابسة تايير
كحلى، فأت الموعد بساعة كاملة، شعوره بالسخف يقاوم الشعور
بالممل؛ وفيما هو يهمل بالانصراف لمح عجوز كركوبة تتلكأ فى سيرها
أمام الرصيف، التايير الذى ترتديه كالح أسود قائم، لكن قلبه
انتفض حينما جاء التايير تحت ضوء الشمس فشمت كحليته
بوضوح؛ هل يمكن أن تكون هى تهانى وإن هى إلا متسولة مقوسة
القامة. ها هى ذى تعود محاولة تصدير وجهها نحوه؛ لله ما أقبحه،
تجاعيد غائرة متجاورة كأنه طبق من الجنبرى، ليس ثمة ملامح، لم
يقو على النظر فيه فحوّل وجهه بعيداً.. ركب سيارته محتتماً
بزجاجها الحاجب، وشعر برعشة فى يديه وقدميه مع ضيق فى
التنفس استمر لدقائق، قرر أن يعرض نفسه على طبيب، لكنه
سرعان ما تماسك، أدار المحرك، وجهاز التكييف، ومحطة القرآن
الكريم، ليدخل شيئاً فشيئاً فى المحارة السميكة، فى القناع الذى
كانه منذ ساعات قليلة مضت؛ ما لبث حتى استعاده كأن شيئاً لم
يكن؛ إلا أنه طوال الطريق انتابه ضحك هيسثيرى عنيد لم يستطع
إيقافه على الإطلاق، حتى وهو فى المصعد، حتى وهو يخلع ثيابه
فى حجرة نومه ويعود إلى مراجعة الرسالة صائحا: القهوة يا
فتحية.

أمه نجحت في التقاط وظيفة
سكرتيرة لأحد أثرياء الانفتاح
بمرتب لا بأس به وفُرت له نفقات
الدراسة إلا أنها تقضى النهار كله
وبعض الليل في شغلها مطمئنة
إلى أن وائل في رعايتنا..

التياب العارية!

كنا

فى رحلة عمل إلى ألمانيا، حصلنا فيها على بدلات سفر مجزية وشاركنا فى ندوات اتضح أنهم يدفعون عنها أجرا للمتحدثين فحصلنا بذلك على مكافآت لم تكن فى الحسبان، عندئذ بدأت أنظارنا تتجه إلى محال الملابس الكبيرة التى تبيع الماركات الشهيرة التى نستطيع أن نفخر بارتدائها فى مصر، زميلنا إسماعيل الدهشان مغرم بالمعاطف، بجرأة كبيرة اقترح المعرض الفخم وأشار إلى معطف فى الفاترينة يطلب معرفة ثمنه، فإذا بالثمن . إذا ما ترجم إلى عملتنا المحلية . يزيد على عشرين ألفا من الجنيه المصرى، المبلغ أذهلنى، يعنى لو حسبت أثمان جميع البديل والجواكت والقمصان والأحذية التى اشتريتها طوال حياتى فلن تصل إلى هذا المبلغ الباهظ المجنون. قال إسماعيل ليغرىنى:

"طول عمري نفسى فيه ورينا أعطانا فلوس لم تكن فى حسابنا .. يعنى رزقه جاء .. فلماذا أحرم نفسى من شئ تمنيته .. ويا أخى فلنعتبر أن هذه الفلوس لم تجئ من الأساس!"

لم اقتنع بكلامه، لكننى بعد عودتنا إلى الفندق رأيت إسماعيل وقد لبس هذا المعطف ونزل إلى "الريسبيشن" ينتظرنا كى نفكر فى سهرة كبيسة نودع بها ألمانيا قبل عودتنا إلى القاهرة مساء غد .. جن جنونى، المعطف احتوى جسد إسماعيل فحوّله إلى شخص آخر تماما، إلى لورد إنجليزى شديد المهابة والأناقة والجمال، ناهيك عن الدفء الذى يشع من القماشة الأصلية السخية ذات الرائحة

الفواحة المنعشة، عندئذ أدركت لماذا هو باهظ الثمن، قدرت أيضا أنه يساوى هذا المبلغ ليس فى صوفه وحرير بطانته ورقى تفصيله وجمال حياكته فحسب وإنما إلى ذلك فى قيمته الاجتماعية والجمالية وفى الأبهة التى يضفيها العطف على لابسـه، يمنحه شرفا طبقيا تاريخيا، يمنحه شعورا بالعراقة وبالسيادة، كما أنه ليس يبلى على الإطلاق بل يظل دائما جديدا يستعصى على الهوان.. وهكذا ضعفت أمامه وقررت شراءه، اصطحبت إسماعيل الدهشان وذهبنا إلى المحل.

دخلت لأقيسه فى دروة مبطنة بالمرايا، لم أجد نفسى فى واحدة منها، تداعت فى ناظرى صور كثيفة من مشهد يسكننى منذ أيام الصبا المبكر وأراه شاخصا كلما هممت بشراء ثوب جديد ذى قيمة: تلميذا كنت فى السنة الأولى الإعدادية، نسكن فى شقة فى الطابق الرابع فى عمارة فى حى الدقى. أبى كان رساما فى مصلحة الآثار، ورساما فى ملبسه أيضا، بذوقه الرفيع فى التعامل مع الألوان كانت ملابسه البسيطة تبدو ثمينة محترمة.. على العكس منه كان جارنا شريف بك الذى منح لقب البكوية من أصدقائه ومعارفه بحكم اعتنائه الشديد بمظهره، إنه مهندس زراعى ولكنه موظف كبير بحديقة الحيوان، ثم إنه صاحب هذه العمارة التى نسكن فى شقة منها، كانت تدر عليه دخلا شهريا محترما يحقق له ولزوجه وولدهما الوحيد رغدا من العيش على حد وصفه، لكن جمال عبد الناصر. سامحه الله. قام بتخفيض إيجارات المساكن عدة مرات فهبط إيراد العمارة كلها إلى ما يساوى إيجار شقة واحدة، مما أصاب الرجل بحزن واكتئاب جعله يعيش بقية عمره بنفس ثيابه القديمة قائلا إنه يسكن فيها بالإيجار، يقصد الغسيل والمكوى والرفا.. زوجته كانت أصغر منه بخمسة وعشرين عاما وكانت جميلة كفاتات السينما.. كثيرا ما كنت أضيئه مع أبى فى حديث هامس يرتفقان سور البلكونة حيث إن بلكونة شقتنا لصق بلكونة شقته لا يفصل بينهما سوى نصف جدار يسهل على أى طفل أن يتسلقه إذا وقف فوق كرسي، أراهما يتقاربان حتى ليلتصق الكتف

بالكثف والجدار الفاصل تحت إبطيهما، أسمع أبى يعطيه بعض
 الوصفات المجربة فى أمور الباء، أسمع شريف بك وهو يصف نتائج
 وصفة سابقة أنعشته بشكل لم يتكرر، أسمع شكواه المتكررة من
 ضيق ذات اليد وتكاثر هموم الدنيا .. أمى . ولا أدرى كيف . تلتقط
 بعض مقتطفات من شواهد الكلام تفسر غموضها، وحينما يأوى
 أبى إلى حجرة مكتبه تلحقه بفنجان القهوة وتعلق بقولها إن شريف
 بك وزوجه الغندورة من بره ها الله ها الله ومن جوه يعلم الله!
 كلاهما أقرع ونزهى! هو يلبس المستورد ويمسك المنشة وهى تلبس
 فرو الثعالب وتمسك بمروحة اليدى وتستلف منى باكو شأى
 وأنبوبة البوتاجاز الاحتياطى، ثم تضيف باشمئزاز: جاتها نيلة عليها
 وعلى أمها نفسها مفتوحة على طول لا تحط فى عينيها حصوة ملح
 وترحم الرجل الهفتان. لكن هذا الرجل الهفتان وقع ذات ليلة فلم
 يقم، مات بالسكتة القلبية عن عمر يقارب الخمسين عاما فحسب..
 ابنه وائل عمره آنذاك عشر سنوات، زميلى فى فصل واحد فى
 نفس المدرسة نروح معا ونعود معا، ونذاكر معا .. أصبح بيتما أصبح
 يقاسمنى الكثير من أشياءى .. تعلمت كيف نختصر الطريق إلى
 إحدى الشقتين، اكتسبنا دربة ورشاقة فى القفز على الجدار
 النصفى الفاصل بين البلكونتين لنصير هنا أو ها هنا كيفما يحلو
 لنا .. أمه نجحت فى التقاط وظيفة سكرتيرة لأحد أثرياء الانفتاح
 بمرتب لا بأس به وفرت له نفقات الدراسة إلا أنها تقضى النهار
 كله وبعض الليل فى شغلها مطمئنة إلى أن وائل فى رعايتنا .. على
 أن أمى بدأت تلاحظ أن رجلا يتردد على شقة جارتنا الأرملة قيل
 إنه رجل الأعمال الذى تعمل هى سكرتيرة له وأنه قد تكفل برعاية
 ولدها ورعايتها نظرا لأنه كان من أعز أصدقاء المرحوم .. بالفعل
 بدأت الفلوس تكثر فى جيب وائل، بدأت كلمة "عمو" تتردد بكثرة
 على لسانه إذ إن مستوى ملابسه قد بدأ يرتفع وتظهر عليه
 ملابس لا تراها إلا فى الإعلانات أو على أجساد الفنانين وأبناء
 الأثرياء ، إلى أن ظهر ذات يوم . وكنا فى السنة الأولى الإعدادية .
 مرتديا "جاكيت" من الشمواء الأصبلى بلون وردى، كان فرجة

المدرسة بأكملها من التلاميذ إلى المعلمين والفراشين ما من واحد منهم إلا وسأله بإعجاب شديد . منين جبته يا وائل؟ جميعهم . أقصد الأصدقاء . أجمعوا على أن ثمنه بضعة آلاف من الجنيهات خاصة أن صدره وبياقته وأكمامه مزدانة بشرائح من جلد الغزال الأحمر . كان وائل إذا أقفل أزواره فوق الفانلة الصوف "أم نصف رقبة" صار من عليه القوم، وإذا تركها مفتوحة على قميص بياقة مفتوحة صار كنجم سينمائي تخطب وده الفتيات باعتباره ابنا لأحد كبار الأثرياء .. جميعنا حسدناه على هذا "الجاكيت"، أنا شخصيا كنت أرى في المنام أنني قد ارتديته لا أدري كيف ولكنني ذهبت به إلى المدرسة مزهوا فخورا وكان ما يشغلني لحظتها أن يقف وائل بجواري في طابور الصباح لكي يرى الجميع أن الجاكيت ملكي ولم أستلفه من وائل .. إلى أن دهمني ذلك المشهد المروع: كنا عائدتين من المدرسة يوم خميس حينما أخبرني وائل مزهوا بأن "عمو" قد عزمه على السينما حفلة الثالثة إلى السادسة مساء وها هي ذي التذكرة، وقال إنه سيخرج من السينما ويجيء لى فى البيت لأن أمه ستتأخر الليلة فى الشغل بسبب أعمال الجرد السنوى، ذهب هو إلى السينما وعدت أنا إلى البيت، بعد الغداء دخلت أمى ورائى حجرتى قائلة فى نبرة كالفجيعة إن جارتنا أم وائل يبدو أنها تركت حنفية الحمام مفتوحة على آخرها، سحبتنى من يدى إلى حمامنا وأسمعتنى خرير الماء المتدفق فى ضجيج مخيف يوهم بأن الشقة زمانها غرقت . الواجب إذن . معلش يا ابنى خدمة لجارتنا الللى فى شغلها قبل الميه ما تزحف علينا . أن أقفز فوق الجدار الفاصل بين البلكونتين إلى شقة وائل وأغلق الحنفية وبالمرة أتمم على جميع الحنفيات وأكباس الكهرباء . وقد حدث فى لمح البصر، صرت داخل الشقة فى خفة القط، دخلت الصالة جآءنى صوت آخر، ونين مروحة فى حجرة النوم يتخلله صوت المطربة صباح فى محطة الراديو تغنى يانا يانا، صوتها والموسيقى يذوبان فى أصوات همهمة ولهاث وأزيز وهزهزة .. رجف قلبى كاد يتوقف، مشيت على أطراف أصابعى إلى الحمام، الحنفية مفتوحة على الحوض . البانيو .

والحوض مسدود بجلدته وإذن فهو مقصود، تركتها عدت إلى الصالة باب حجرة النوم موارب، ياللا.. العفاريث .. أم وائل عريانة تماما، مفسوخة مطوية تحت جسد عار ضخمة هو جسد "عمو"، الاثنان في غيبوبة النشوة.. تسمرت في وقفتي غير قادر على التصرف، كنت بدوري مفسوخا بين اللذة بحب الاستطلاع كفرصة ثمينة نادرة، وبين الحياء والمبادرة بالمغادرة، غلبني شيطان اللذة، فعلتها على نفسي واقفا دون أن يشعر بي أحد، ثم انسلت عائدا كطائر أبي قردان.. خافت أُمى من ارتعادي، العجيب أنها اكتفت برؤيتي فلم تسألني عن أى شيء ويبدو أنها حدثت ما حدث، لكنها ظلت ترهب باب أم وائل حيث تأكدت مما توقعته، ومن يومها لم تعد أم وائل جارتنا وإن بقيت ملاصقة لنا في المسكن، وانقطعت صلتى بوائيل، وأصبح جسدى يقشعر أمام الملابس الفاخرة الثمينة.. ما إن أقع في هواها حتى أنظر منها..

طويت المعطف وتركته بين يدي البائع كأننى أتخلص من رجس شيطاني، ثم سارعت فاعتذرت للبائع بأننى نسيت نقودى في الفندق، كان الموقف مضحكا بالفعل كما وصفه إسماعيل، فاضطرت أن أحكى له أصل السبب على سبيل التفكه، فقال ساخرا: ألهذا تكره الملابس الثمينة اللافتة للنظر؟ .. قلت لا ولكنها ارتبطت في شعورى بالعار! كل ثوب ثمين لافت للنظر غير متناسب مع وضع لابسـه قد يكون وراءه شيء ما من الدنس! قال: ما هذا الهراء يا رجل؟ أكل من لبس ثوبا ثمينا لافتا تلحقه هذه التهمة الظالمة ضيقة الأفق؟ قلت: لا بالطبع ولكن حين تشعر أن الثوب أرفع قيمة من لابسـه.. قاطعنى ساخرا.. بسيطة نحترم الثوب ونحتقر لابسـه.. قلت أما أنا فأحتقر الثوب ولابسـه معا. قال ساخرا: الأفضل أن نمشى عرايا مثل أجدادنا الأوائل. قلت: الأفضل أن يلبس كل واحد ثوبه الطبيعى الملائم له والمتسق عليه.. قال: يا عم بطل فلسفة! ولكرنى واضعا يديه في جيبى المعطف متقمصا شخصية لورد يمشى مكللا بالنصر. فى حين تتصاعد ضحكاتنا السوقية البذيئة وتلفمط أصدائها رصيف هذا الشارع الجميل من شوارع برلين.

درءاً لوقف الحال نزل يتجول
 في أروقة الإذاعة لعله يجد
 منقذاً إلى إصلاح ما قد يكون قد فسد
 من علاقة. فوجئ بجميع الوجوه
 تزور عنه، العيون تمنع نفسها عن
 رؤيته. ينقر على باب حجرة من
 حجرات المخرجين قائلاً صباح
 الخير: تنكفى العروس على
 الأوراق دونما رد.

البلد البعيد

حينما

دلف الممثل الشاب ضياء عبد البديع داخل إستديو تسجيلات الإذاعة فى شارع علوى لأول مرة كانت بهجة التفاوض المفعم بالأمل المشرق فى المستقبل المنظور، تحيط به من كل ناحية، حتى الأجهزة الصماء من الميكروفون إلى شريط التسجيل كلها بدت له كأنها تشارك فى الاحتفاء به كنجم يبدأ الآن سلم الصعود بسلامة، تليق بموهبته التى شهد لها جميع أساتذته فى معهد الفنون المسرحية ومنحوه لقب الأول بامتياز طوال سنى الدراسة، ورشحوه لمخرجى المسرح والسينما والإذاعة بحماسة تجاوزت معها الصحافة الفنية، وفى زمن قليل، وقبل تخرجه فى المعهد بأكثر من عامين باتت صورته منتشرة مألوفة بين عواميد الأخبار، وفى أماكن بارزة بعناوين كبيرة تبشر بقدمه بطلا للفيلم الفلانى والمسرحية الفلانية، وذلك فى أعقاب قيامه ببطولة ثانية لفيلم سينمائى كبير، لمخرج أكبر، لم يستطع أن يتألق فيه كما ينبغى نظرا لحصاره بين إشعاع أربعة من كبار النجوم استأثروا بكل الأحداث فسرقوا منه الكاميرا طوال الفيلم، إلا أنه ترك انطبعا جيدا جداً فى قلوب الجماهير التى توقعت له صولات وجولات على شاشة السينما فى القريب العاجل، سيما أن وجهه تحفة فنية متسقة بذوق إلهى غاية فى الجمال، من أنف رومانى شامخ، إلى عينين مصريتين دافئتين، إلى شعر غزير متهدل فى غير ابتذال على جبهة كفحل الرمان، إلى سالفين واصلين إلى تخوم كرسى

الخدئين، وحنك مفوه واسع كخيال زورق بعيد .

الأفق أمامه كان مشرقا حتى وإن كان مستقبه المرئى لا يزال مجرد مشاريع فنية يقترحها أو يفكر فيها آخرون فى الحقل السينمائى بقطاعيه العام والخاص، ثم إنه مرتبط الآن بإجراء تدريبات يومية على بطولة مسرحية شكسبير الشهيرة "هاملت"، التى سيقدمها المسرح القومى فى موسمه الشتوى القادم على الأبواب، وسوف يلعب هو - طبعاً - دور هاملت، فإلى أن يحين موعد العرض، أو يدخل أحد المشاريع السينمائية حيز التنفيذ فإن الإذاعة هى الميدان المفتوح أمامه يومياً للعب بطولات إذاعية متنوعة فى مسلسلات شهرية وسباعيات وخماسيات وسهرات درامية، إن صوته شديد المرونة فى الميكروفون، ولهذا فالإقبال عليه أصبح لافتاً للأنظار فى الصحافة الفنية، يتزايد الإقبال عليه بصفة خاصة من مخرجى البرنامج الثانى حيث المسرحيات العالمية المترجمة تحتاج لأمثاله من دارسى قواعد اللغة العربية جيداً إلى جانب قدراته التمثيلية المتنوعة.

لترابيزة التدريبات والمراجعات التى تجمع المخرج بممثليه عند توزيع الأدوار وتدوين البيانات المطلوبة، غرفة خاصة فى نادى الإذاعة المقام فوق سطح عمارة تحتل ناصيتى شارعى علوى والشريفين، وكان ضياء عبد البديع يحب الخروج من هذه الغرفة إلى الردهة المستطيلة مفتوحة النوافذ على شرفة تحيط بالنادى من جميع الجهات، حيث تتراص المناضد والكراسى، تتخللها أركان بمقاعد جلدية مرحرحرة، يحلو له الجلوس فى الركن البحرى المنعش صيفاً بهوائه العاصف أحياناً، لمدة ربع ساعة يراجع دوره ويقطع الجمل حسب الإيقاع الذى سيؤدى به، إلى أن يحين موعد دخوله على التسجيل فى مبنى مقابل بشارع علوى دقيقة بالمصعد إلى الأرض، دقيقة فى عبور الحارة إلى مبنى الاستديو، دقيقة فى صعود سلمه الواقف، فى الدقيقة الرابعة أو الخامسة يكون قد تم تسريبه إلى داخل إستديو التسجيل جاهزاً للدخول بصوته إلى المسمع القادم كان قد وصل إلى درجة عالية من الاحتراف فى فن

التعامل مع الميكروفون، فيسجل المسمع فى شوط واحد دون "عكة" واحدة فى نطق أو ارتباك.

إلا أن إيقاع الإقبال عليه برغم ذلك بدأ يتباطأ، بل كاد يتوقف، تمر الأيام الطويلة دون أن يستدعيه أحد وفى لحظة تأمل فى ركنه المفضل عند الشرفة البحرية انتبه إلى ظاهرة غريبة، وهى أن المخرج الذى يستدعيه للتمثيل فى عمل، لا يستدعيه بعد ذلك مطلقاً، حتى المسرحيات العالمية التى كانت تسعى إليه بفزارة، والتى أبدع فى تمثيلها بوعى إذاعى يجعل المستمع يرى بأذنيه، لم تعد تأتى إليه، لم يعد أحد من المخرجين يطلبه إلا للضرورة القصوى، بدأ القلق يساوره، أخذ يسرح بالريجيسير الشخص المكلف بتوصيل أوامر الشغل إلى الممثلين، ويستدرجه فى الكلام عندما ذهب إليه يطلبه بعد انقطاع طويل ومريب، فعرف منه أنه لم يكن المرشح الأول لهذا الدور بل سبقه فى الترشيح خمسة من النجوم اعتذروا كلهم إما لانشغالهم وإما لسفرهم إلى المصيف، وأن المخرج ظل يؤجل الاستعانة به إلى أن حان موعد التسجيل، ولو كان أمامه ممثل يجيد اللغة العربية حتى وإن كان ضعيفاً فنياً لاستدعاه قبل أن يسلم أمره لله ويستدعى ضياء عبد البديع.

بعد انتهاء التسجيل تسلم إذن الصرف الفورى، وعرج على الخزانة الفرعية عندها تحكك به ممثل قصير القامة من غير المؤهلين علمياً ومع ذلك شغال كالولعة فى جميع البرامج، سحبه إلى جنب وهمس فى أذنه:

"مطلوب من حضرتك جنيهان ونصف!"

"لماذا؟"

"معاونة للمخرج المسكين!"

"هل هو الذى كلفك بهذا؟"

"حاشا لله، الرجل لا يفكر فى هذا أبداً! إنما نحن المشتركين فى التمثيلية فكرنا فى هذه المساعدة! أصل.. لا تؤاخذنى! الرجل مرتبه لا يكفى سجاثره! ويا بخت من نفع واستنفع! حين تأخذ مائة جنيه فى تمثيلية سهرة وتستغنى عن جنيهين ونصف يا بلاش.. أنا

أسف إذا كنت لم تسمع بهذا من قبل، مع إنك فى الشغل الإذاعى منذ أكثر من عامين! سأسألك: هل كرر أحد المخرجين طلبه لك بعد العمل الأول معه؟ لا بالطبع! أنا أعرف! لأنى كثيراً ما أساعد المخرجين على توزيع الأدوار لأنى ملم بجميع أسماء الممثلين وأرقام تليفوناتهم وأستطيع أن أرشح بدلا من الممثل عشرة للدور الواحد! هى فى النهاية أرزاق، ولا أحد يعرف رزق من هذا الذى نعيش فيه!.

تفكر ضياء قليلاً، أوشك أن يزأر فيه غاضباً: إننى لا أقبل البرطلة على فتى! إننى أفيد المخرج أضعاف ما يفيدنى، إننى لو دفعت مليماً واحداً على سبيل الرشوة لكى أشتغل فلن أحترم نفسى بعدها، ولن يكون للشغل أى طعم! سأشعر أننى أشتغل بالرشوة لا بالفن! لكنه خشى الفضيحة والاتهام بالمنظرة الكاذبة، فاعتقل غضبه ودفع الجنيهين والنصف على مضض، لكنه ما لبث حتى شعر بأنه منصوب عليه، فصعد إلى النادى ليشرب قهوة لعله يلاحظ ما قد يؤكد له زعم هذا الممثل الجامع للرشوة، كان كبرياؤه المهيض ينزف، أبعد كل هذه التأهيلات والموهبة والدعاية يقبل على نفسه دفع رشوة؟ شئ باق من كبريائه أوعز إليه بأن هذا الممثل كذاب استغفله كما يستغفل غيره ضامناً أن الحرج سيمنع الجميع من ذكر ما حدث، بدأ يتوجس بشدة، أليس من المحتمل أن يكون هذا فخاً للإيقاع به فيه لكسر كبريائه الذى هو أميز شئ فيه، ما إن رأى الممثل إياه يعبر خلل الشرفة حتى ناداه. قال له بنبرة حسم: "هات المبلغ الذى أعطيتك لك منذ قليل" نظر إليه الممثل القزم نظرة تحد فاجرة، قائلاً فى تطجين بلدى متقن.

"مبلغ إيه يا أفندى؟ أنا ما أخذتش منك مبالغ!"

بهت ضياء، صاح برغمه:

"تحلف؟"

شوح فى وجهه بخشونة:

"أحلف على إيه؟ انت حترمى بلاك علينا؟"

قال ضياء فى تهديد مهيب:

كده؟ طب حاعرفك شغلك؟
شوح له مرة أخرى باستهانة واستخفاف:
"يا راجل روح؟"

وأهمله عائداً إلى الشرفة، ومما أذهل ضيياء أن الذين رأوا المشهد كانوا ينظرون إليهما من تحت لتحت باشمئزاز، نظرات فيها استعداد للتواطؤ مع أى أحد ضد أى أحد لله فى لله. عاد إلى بيته مقتنعاً بضرورة الحساب، وإلا فسوف ينهدم كيانه، وليس مظهره العام فحسب، هدهد أعصابه بكل الوسائل حتى استطاع كتابة شكوى موجزة لرئيس هيئة الإذاعة، موضوعها أنه قد تعرض للابتزاز من الممثل فلان الفلانى الذى أخذ منه رشوة قدرها كذا باسم المخرج فلان الفلانى عقب الانتهاء من تسجيل السهرة الفلانية فى استديو كذا الساعة كذا يوم كذا، أرجو التحقيق فى أمر هذه الظاهرة الخطيرة التى لا شك تسبب إلى سمعة جهاز خطير كالإذاعة له حساسيته الأمنية الخاصة، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام، فى صباح اليوم التالى وضعها فى مظروف وسلمها لمدير مكتب مدير عام رئيس الهيئة، الذى اهتم بها وأدخلها أمامه بنفسه إلى مكتب سيادته لتكون تحت عينيه فور وصوله. أيام طويلة مضت وضيياء عبد البديع ينتظر التحقيق فى شكواه، ولكن لا حياة لمن تنادى، فلما لم يطلبه أحد للتحقيق، بدأ هو يتمشى فى أروقة علوى والشريفين يتشمم الأخبار، عرف خط سير شكواه، رئيس هيئة الإذاعة أشر عليها وبعث بها على السركى اليومى إلى مدير عام البرامج، الذى أشر عليها بدوره وبعث بها إلى مراقب عام التمثيليات، الذى أشر عليها وبعث بها إلى كبير المخرجين، الذى طالب بعقد اجتماع لمخرجيه فى مكتب المراقب العام.. وإلى هنا عجزت تحريات ضيياء عبد البديع عن الوصول إلى شىء مما دار فى هذا الاجتماع، لكن ما حدث له بعد ذلك أكد أنه كان اجتماعا على درجة كبيرة من الخطورة.

أسابيع طويلة مشحونة بالضجر، تليفونه لا يكف عن الرنين، لا يطلبه فى شغل، بل للدردشة المقيمة المقبضة باسم الزمالة

والصدّاقة يفتحون معه مواضع غريبة يحار هو في فهم مناسبة طرحها عليه الآن، اللهم إلا أن يكون الهدف من ورائها استدراجه ليعترف بعضمة لسانه بما حدث: هناك شائعات غامضة حوله تتردد في أروقة الإذاعة، ما هي؟ لا يقولون، إنما يريدون دفعه إلى حكي ما لا يعرفون، ما يساعد تصوراتهم على تطويع الأمر إلى ذروة خيالية، أخيراً فهم بالوهم أنه يكاد يكون متهماً بتقديم رشوة لأحد المخرجين وأن أجهزة الأمن اكتفت بزجره وتأنيبه منعاً للشوشرة على مخرجي الإذاعة وسمعة المسؤولين عنها... حاول الاتصال بأي مسئول إداري أو أمني لتصحيح حقيقة الأمر إلا أن أحداً لم يشأ الرد عليه، فكر في اللجوء إلى الصحافة لتوضيح موقفه، فإذا به في نفس اليوم يقرأ أن الصحفي الذي انتقد مذيعة التليفزيون الناعمة الشهيرة قد تم التحقيق معه ثم إيقافه عن الكتابة، فتراجع عن فكرته وسيطر عليه شعور طاع بأنه صار وحيداً في هذا الكون كفرع اجتثته الريح وطوحت به في الفضاء اللانهائي.

درءاً لوقف الحال نزل يتجول في أروقة الإذاعة لعله يجد منفذاً إلى إصلاح ما قد يكون قد فسد من علاقة. فوجئ بجميع الوجوه تزور عنه، العيون تمنع نفسها عن رؤيته. ينقر على باب حجرة من حجرات المخرجين قائلاً صباح الخير: تنكفى الرؤوس على الأوراق دونما رد، حتى الساعة الذين طالما توددوا إليه ونعموا بيقشيشاته السخية وسجائره الأجنبية، بدوا كأنهم لم يعرفوه من قبل، يتصدرون بأجسادهم في الأبواب لتعطيله عن الدخول وفي نظراتهم خسة الكلاب الضالة. في نادى الإذاعة بالغ البعض في الترحيب به بشكل كاريكاتيري مؤلم. حينما أعطى الجرسون جنيتها ليأخذ منه ثمن القهوة ويتردد كالعادة في رد البقية اعتماداً على أنه سيقول له: خلى الباقي عشانك، لم يفعل الجرسون هكذا هذه المرة بل أخذ حقه بالمليم ووضع البقية أمامه على المنضدة وانصرف دون أن يبادلها كلمة واحدة في انكسار، أعاد ضياء فلوسه إلى جيبه مقاوماً الرغبة في البكاء، لكنه استحسن ما فعله الجرسون، فما

أحوجه الآن إلى هذه القروش، إنه على مشارف البهدلة، فمرتبته من المسرح القومى ينفذ فى ثلاثة أيام، لم يعد بمقدوره ركوب التاكسى، ولا الانحشار فى الأتوبيسات، أصبح من المشائين، أوشكت جلود أحذيته على التفكك من نعالها الحداثية، قمصانه فقدت أناقيتها، بدله التى استعد بها للأفلام أهينت فى اللبس اليومى بدلاً من تلك التى اتسخت ولم تجد من ينظفها، فترهلت وتكرمشت، ثيابه الداخلية اسودت، المكوجى لا يعمل بالشكك، الفسالة التى كانت تجيئه كل أسبوع لم تجد حتى صابونة فكفت عن المجيء..

زعمت إدارة المسرح أن العرض المسرحى لهاملت قد تم تأجيله إلى أجل غير مسمى، وبعد أسابيع قليلة فوجئ بأفيشات الشوارع تعلن عن موعد العرض الوشيك لهاملت بطولة الوجه الجديد ماهر فاروق العائد من بعثة دراسية فى لندن.

تأجل تعيينه كمعيد فى معهد الفنون المسرحية. ذهب يسأل عن السبب، قيل له إنها أسباب أمنية غامضة شطبت اسمه من قائمة المعيدين، ومن البعثة الدراسية المقررة له، ومنحتها لزميله الأول مكرر، حاول بأنفاس متقطعة أن يعرف ما هى هذه الأسباب الأمنية، فاكتشف أنه سيزج بنفسه فى متاهات حالكة الظلمة، وجد أن الخوف من مصير غامض مجهول أخف وطأة بكثير جداً من محاولة استكشاف هذا المصير المحفوف بالظلمات والأشواك والرعب المقيم.

هيفاء الشورىجى حبيبة قلبه وزميلة دراسته، وشريكته فى الحلم الوردى الذى كان قد دخل بالفضل عتبات الواقع، رضيت بعد عدة مكالمات تليفونية أن تقابله فى كازينو قصر النيل، كلاهما كان يتلأأ عن عمد، معطياً للآخر فرصة الوصول قبله ليكون هو ضيفاً عليه، فتلاقيا وجها لوجه حول سور الكازينو، لم يكن فى جيبه مليماً واحداً، وكانت لحيته قد طالت فأضفت على وجهه شيخوخة مبكرة، لكن هيفاء التى أدركت سوء حالته قالت: "أنا عازماك على شاي، لم يذق منه رشفة واحدة، نسيه، كان يريد أن يستشف موقف

هيفاء من مستقبلهما معاً فى ظل وضعه ذاك المتردى، فإذا هو فجأة غير متحمس حتى لمعرفة هيفاء نفسها، دمعت عيناه فنزلت خيوط الدمع بغزارة أغرقت لحيته، وهو مع ذلك يقاوم لكى يبتسم ليبدو عادياً، بعكس هيفاء التى كانت متماهية مع بكائها، كانت تبكى بوعى وإرادة، وكان بكاءها موقفاً كامل البيان. فى النهاية لم يقل شيئاً، ولا هى قالت شيئاً، السأم وحده أجبرهما على القيام، أوصلته بالتاكسى إلى الشقة الصغيرة التى يسكنها فى حي العمرانية منذ التحاقه بالمعهد، ثم انصرفت، وكان هذا آخر لقاء بينهما.

لم يعد لاسمه وجود فى الصحف على الإطلاق، نسيت الجماهير صورته تماماً، فى محل البن البرازيلى كان يلمح بعض أساتذته من كبار المخرجين، فيعود ليسلم عليهم بعضهم تهرب من مسئوليته تجاهه بقوله: "لو لم تكن مشاغبا غدارا لتبسم لك الحظ"، وقال له آخر على سبيل اللوم والتأسى: "إيه بس اللى يخليك تدفع رشوة وبعدين تروح تبليغ ضيعت نفسك أونطة!" تحت ضغط الشعور بالقهر حاول البحث عن أى عمل يدر عليه دخلاً، فصدمته الحقيقة المرة: إن جميع المنافذ للرزق أو للشهرة أو حتى للتنفس كلها ملك الدولة، وهى كالأوانى المستطرقة تتوازن سوائاً للأمور بنسب متساوية، فالحنة التى تقع للواحد فى جهة تطارده فى جميع الجهات حتى تحكم عليه بالنفى المطلق من الحياة، بل وإنكار الوجود أحياناً.

باعتبارى من أقرب أصدقائه إليه ويهمنى أمره، كنت الوحيد الذى يعرف كل شىء عن محنته، قد تعذبت فى ملاحقته لتقديم ما أستطيعه من مساعدة. لكننى ما أكاد آراه حتى يختفى، ولقد طال اختفاؤه لدرجة أنه تم فصله من المسرح لطول الغياب، ذهبت أسأل عنه فى شقته التى شاركتها فى إيجارها وسكنها ذات يوم بعيد، فعلمت أن إيجارها قد تراكم، وأن ضيائاً انقطع عن المجيء، فأقام صاحب الشقة دعوى قضائية وحصل على حكم بطرده ليتزوج ابنة فيها.

بعد أربعين عاماً كنت قد أحلت إلى المعاش من وظيفتي في إدارة المسرح، وبلغت الخامسة والسبعين من العمر، لم يعد ثمة من هواية أو رياضة أشغل بها وقتي سوى الصيد بالسنارة، أو صلني التجوال إلى ما تحت كوبري الجامعة، بدأت ألاحظ وجود دائم لكهل طويل اللحية إلى منتصف صدره، يبدو جميل الوجه برغمها وبرغم ما يتسريل به من أسمال بالية فوق جسد يغطيه الصدا والقشف، حافي القدمين، أحياناً يقرقش كسرة خبز يابسة، أحضرت له من بيتي وجبة دسمة، اقتريت منه، مسيته بالخير ووضعتها أمامه، فأزاحها بذراعه ونظر لي بكبرياء وشموخ كأنه ملك متوج. انخطف قلبي في الحال، عرفته، إنه صديق عمري الفنان ضياء عبد البديع، بكيت، هتفت من فرحتي، حاولت احتضانه لكنه أبعدني بذراعه في توجس. قلت له: "ألا تذكرني يا ضياء؟ أنا حسام نصير زميلك في كلية التجارة وفي المسرح الحمد لله أنى شفتك أخيراً" راح يصوب لي نظرات تخلو من أى معنى، فكررت مرات عديدة "أنا صديق عمرك حسام" وكررت عليه ما ألهمنى به الله من نواذر وأمارات بيننا، ولكن دون جدوى، ابتلعت مرارتي ومشيت إلى حيث توضع سنارتي، فوجئت به يناديني: "يا حضرة!" فعدت إليه ملهوفاً، فسألني بجدية هائلة ورجاء حار: "من فضلك هي البلد دي اسمها إيه؟"، فحرت جواباً، حملت سنارتي ومشيت أبحث عن مكان آخر في منطقة بعيدة، فيما يطاردني صوته الجاد البريء من أى ادعاء أو افتعال، فما إن عدت إلى بيتي واسترحت قليلاً حتى رمقتني زوجي بنظرة استنكار، ثم سألتني في دهشة: بلد إيه دي اللي داير تسأل عن اسمها؟!

● إنه يتحرق شوقاً لأن يمسكها
 بيديه متلبسة، لا ليقبض عليها
 وعشيقتها ويبعث بهما إلى قسم
 شرطة البذر لكي تعرضهما على
 النيابة بتهممة الزنا، بل
 ليكسر عينها فحسب، فلعلها
 تستسلم له.

الاشتياق لليلة حالكه

كان الاختراع مبهرًا حقًا. التف حولَه الرجال والنساء والأطفال في مندرتتا يتفرجون عليه وسط تعليقات من قبيل ويخلق ما لا تعلمون، ويصفق الرجال كفا على كف ويقول بعضهم لبعض ولسه ياما حشوف!، ذلك أن جاراننا التمرورجي في أحد مستشفيات بندر دسوق عبد القادر مبروك الذي ينحدر من أصول سودانية بعيدة، ويعود إلى بلدتنا خميسا وجمعة من كل أسبوع، جاءنا ذات ليلة خميسية ومعه آلة توضع في الجيب وتسمى الكشاف، هو عبارة عن جسم اسطوانى من المعدن المطلى بالنيكل في حجم كوز الذرة، له طارة كالبرنيطة مغطاة بالزجاج يظهر من تحته لمبة كهربائية شفافة في حجم حبة الفول، إذا احترقت بكثرة الاستعمال يمكن فك هذه الطارة ذات القلاووظ وتغيير اللمبة وإعادة ربطها. في أسفله غطاء بقلاووظ أيضا، إذا برمناه يسارا ينفك لكى نضع في جوفه بطاريتين اسطوانيتى الشكل يسمى نوعها بالحجارة الطرش، توضعان وراء بعضهما ثم يغلق عليها الغطاء. على سطح نتوء متحرك إذا دفعه بإصبعه ينبعث الضوء عموديا كالقرطاس يمتد على مساحات بعيدة طولاً وعرضاً، فيبدد الظلام تماما على هذه المساحة بما يتيح لحامله أن يمشى على هديه آمنا مطمئن اليال من غدر الظلام، فإذا أزاح النتوء إلى الورا ينطفئ الضوء. والبطاريتان هما مصدر الطاقة الكهربائية التى تضىء اللمبة، وهى تنفذ بعد حين، ويتعين على مستخدمه أن

بشترى بطاريتين جديدتين من محل فى بندر دسوق.

الزهو باقتناء المخترعات الحديثة كان قد استوطن دارنا ردحا طويلا من الزمان بوجود جهاز الحاكى . الجرامفون . فى دارنا موروثا عن جدى الذى كان ذات يوم يعد من كبار الملاك الأعيان، ووجود اللمبة البللورية التى تتدلى من السقف كالنجفة ويمكن سحبها إلى أسفل لتعميرها بالجاز وإشعال شريطها ثم دفعها إلى أعلى قرب السقف. فلما وقعنا فى أزمة من العوز والفاقة بعنا الحاكى باسطواناته للعمدة، فانتقل مركز الانبهار والإشعاع إلى داره ودواره، إلا أنه لم يهنأ بذلك طويلا، إذ فوجئت بلدتنا ذات يوم بالمعلم فرج الخياط المشهور فى البلاد المجاورة قد اشترى جهاز راديو ماركة فيليبس ببطارية كبيرة سائلة يتم شحنها كلما فرغت فى ماكينة الطحين. فتمركز الإشعاع كله فى دكان الأسطى فرج غطاس وأصبح دكانه مزدهما على الدوام ليل نهار، لا بالزيائن فحسب وهم كثار، بل بجميع شبان الناحية حيث قد سحرنا هذا الجهاز واعتبره أهلنا من علامات الساعة يعنى قيام القيامة بدليل أن الحديد قد نطق، فها هو ذا صندوق خشبى يرسل الغناء والتمثيل والأخبار يجرى بها من مصر ومن جميع أنحاء العالم.. وأخيرا ظهر هذا الكشف العجيب فى يد التمرورجى عبد القادر مبروك ليصبح محط أنظار الشباب، خاصة العياق منهم، وبالأخص أولئك الرجال الذين يحبون أن يكونوا هم وليس غيرهم أول من يقتنى مثل هذه المخترعات المبهرة للقوم.

ما لبث كشف التمرورجى عبد القادر مبروك حتى بات أشهر شئ فى بلدتنا، ينسب إليه كل ضوء يلمع فى السماء من الشهب المتساقطة إلى النجمة أم ذيل، فكثيرا ما كان عبد القادر مبروك فى عز الليل الخميسى على إحدى المصاطب مع شيخ الخضر أو بعض السهيرة حيث يروح يسلط كشافه على السماء فى قرطاس ضوء عمودى يحلق فى السماء ويراه الناس فى شرق وغرب وشمال وجنوب البلدة حتى اختلطت عليهم الأضواء. ثم إن العمدة سرعان ما فطن إلى أن لمثل هذا الكشف الكهربى ضرورة أمنية، يستطيع

هو أو شيخ خفرائه أن يسلط عموده الضوئي على حقول الذرة والقصب فيجوس الضوء خلل الأعواد يكشف فيه عن قطاع الطرق والمجرمين واللصوص، وكذلك في حوارى البلدة المظلمة وخرائبها الكثيرة ومقابرها حيث يقبع الفسقة الفجرة، سيما وأن حوادث فحش أفعال الدكاكين وسرقة المحاصيل وخطف البهائم كانت منتشرة في البلدة، وبخاصة في النصف الأخير من الشهر القمري، حيث تغطس البلدة في أعماق بئر سحيق من ظلام دامس لا يجرؤ على اختراقه إلا ذو قلب ميت. فلما فكر العمدة في شراء كشاف مثله، وعلم أن ثمنه جنیه كامل يشتغل به عامل زراعى فى الحقول شهرا بأكمله، نزع الفكرة من رأسه ثم ما لبث حتى امتدح الظلام باعتباره لباس الستر الذى أرادہ الله سبحانه لعباده من بنى الإنسان الستر حلو برضه يا اخوانا! فى نفس الوقت كثيرا ما كان ينتظر قدوم عبد القادر عصر الخميس لقضاء إجازته الأسبوعية فى البلد، فيستلف منه الكشاف لمدة ساعة أو ساعتين نظير قرش أو قرش ونصف مساهمة فى ثمن البطارية، لكن عبد القادر كان يقول له خلى عنك يا عمدة! ولا يأخذ شيئا. وفى ليلة استدعاه بصنعة لطافة، بروح الإخوة والصداقة واضعا فى اعتباره أن عبد القادر مبروك وإن كان من مواطنيه فإنه تمورجى، يعنى يجيد القراءة والكتابة، يعنى أنه موظف حكومى محترم ولا يليق أن يعامله معاملة الفلاحين الجهلة والأجراء التافهين، ثم إن عبد القادر يستطيع الرد على العمدة وإفحامه إذا هذا تحدا، بل يستطيع مقابلة المسئولين فى البندر وتقديم ما يشاء من الشكوى، وسوف يستمعون إليه باحترام شديد، على الأقل لأنه تجيء من ورائه خدمات يحتاجونه فيها كضرب الحقن والتغيير على الجروح والإسعاف بأى شكل. استدعاه العمدة بصيغة عزومة على كوب من الشاي على مصطبة الدوار الداخلة فى حديقته الخلفية. بعد أن شربا ثلاثة أدوار من الشاي طلب العمدة من عبد القادر أن يعيره الكشاف لمدة خمس دقائق فقط، ماشى يا عمدة، لكنه وهو يسحبه من سيالته ويعطيه له ضحك ضحكة زنجية مصلصلة برقت منها

عيناه القويتان الناصعتان فى بشرته السوداء، ضحكة متقطعة يدارى بها حرجه ويحاول إكمال عبارة : بس وحياة والدك البطارية قربت تخلص! يعنى من غير مؤاخذه ما تفتحوش عمال على بطل! صاح فيه العمدة باحتجاج اصطناعى لطيف :

ذلنا بقى! إياك فاكّر إن ربنا حوجنا ليك! أنا على فكرة أقدر اشترى عشرة عشرين من كشافك ده بس خايف من الحرمانية!

ثم أعطاه ظهره ومضى ممسكا بالكشاف متوغلا فى حديقته المترامية الأطراف على مساحات بعيدة يافها ظلام مركب شديد الكثافة حيث تبدو الأشجار العتيقة الكثيرة المتجاورة كتلال من ظلال تجمد كتلج المحيط المتجمد الذى نذاكره فى دروس الجغرافيا . تجلجل ضحكة عبد القادر مبروك وهو جالس وحده فوق المصطبة المخفية داخل السور من خلف الدوار . إنه يعرف أن العمدة ليس يريد أن يقتضى أثر لصوص أو مجرمين أرادوا به أو بحديقته شرا ، لسبب بسيط هو أن جميع اللصوص والمجرمين من أصدقائه الخلس وبفضله لا يتم القبض عليهم مطلقا .. إنما العمدة قد جُن فى هذه السن الحرجة ، فبرغم أن أحفاده تزوجوا وأنجبوا فإنه قل عقله ومال لمياصة البنت السنكوحة اللى اسمها سبيلة، المشهورة بالسلوك البطلال، رآته سهلا فلعبت بدماعه فمال واندلق فتأبت عليه مع أنها رضيت لطوب الأرض، وهو من حرقته يريد أن يقتضى أثرها فى عز الليل، حيث أكدت الشائعات أن البنت تقابل عشاقها فى عز الليل تحت أشجار حديقته الكثيفة المخيفة، إنه يتحرق شوقا لأن يمسكها بيديه متلبسة، لا ليقبض عليها وعشيقها ويبعث بهما إلى قسم شرطة البندر لكى تعرضهما على النيابة بتهمة الزنا، بل ليكسر عينها فحسب، فلعلها تستسلم له، عندئذ تعاظمت ضحكات عبد القادر حتى كتمها فى صدره خشية إيقاظ النيام، فصار جسده يهتز وينتفض من فرط السخرية من جنون العمدة المغفل، وكانت رعشة الخوف تهجس فى صدره بتوقعات مخيفة .. آه لو علم العمدة أن هذه الشائعات صحيحة مائة فى المائة، آه لو علم العمدة أنه هو . عبد القادر مبروك . بطل هذه

الشائعات الأوحدا! أنه هو الوحيد الذى نال من سبيلة ما لم ينله أحد، وأنه يحرص على المجيء كل خميس من أجلها، وأنه الليلة أنهى مهمته معها فى حديقة العمدة فى عشة مسقوفة يبيت فيها المعيز والخرفان أيام كان عند العمدة معيز وخرفان، وأن ذلك تم قبل مجيئه إلى العمدة بدقائق حتى إنه لم يجد وقتا ليستحم.

عصر اليوم التالى . الجمعة . كان عبد القادر يجلس مع أبى فى مندرتاً بدعوة من أبى الذى قال له إنه يريد أن يكلمه على رواقه فى موضوع مهم، مع أنهما سيلتقيان فجرا على السكة الزراعية فى طريقهما إلى محطة القطار على مبعده ستة كيلومترات من بلدتنا، ليركب عبد القادر إلى دسوق، ويركب أبى إلى كفر الشيخ، وحينما راح عبد القادر يحكى لأبى حكايته مع العمدة والبنت سبيلة . دون أن يفلتن إلى وجودى . راح أبى يضحك بعمق دون صوت وهو لا ينى يسلق عبد القادر بنظرات ذات معنى . وكنت أعرف السبب وراء هذه النظرات، فلقد رأيت ناسا كثيرين ينفردون بأبى فى المندرة ويشكون له مر الشكوى من أفاعيل عبد القادر وكشافه، شئ يقشعر منه بدنى: إنه فى ليلتين من كل أسبوع يقضى النصف الأخير من الليل متجولا فى الظلام فى أماكن معينة لا تخطر على البال، فيسلط كشافه فجأة على عاشقين يختلسان وصلا فى أطلال قديمة أو بين الجنائين وفى العشش المبنية فى الحقول القريبة، قد يعثر على بهائم مسروقة لتوها يتم التفاوض بشأنها بين السارقين، أو على لص بائس يتسلل جنب الحيطان .. عندئذ يدخل شريكا فى الصفقة، لابد أن ينوبه من الحب جانب مقابل كتمان الفضيحة، وهو لا يعنى من يقع تحت كشافه الفاضح، يضاجع فى الحال، يأخذ حقه من السرقة ناشفاً، أى نقوداً .. وفى كل شكوى كان أبى يعلق بأنه لا يستطيع أن يفاتحه فى مثل هذه الأفاعيل، لا بصراحة ولا بالموروب . إلا أننى كنت أعرف لماذا دعاه أبى هذه الليلة إلى الشاى فى المندرة: لقد اقتنع أبى أنه أحوج الناس فى بلدتنا إلى مثل هذا الكشف، فأبى تاجر عطارة وأعشاب طبية، يفرش بها فى أسواق الناحية، يسافر خمسة أيام فى

الأسبوع، كل يوم فى سوق بلدة مجاورة، مما يحتم عليه الاستيقاظ قبل أذان الفجر بقليل، يذهب من فوره إلى المسجد يصلى الفجر جماعة، يعود فيجد أمى قد جهزت له خرج البضاعة والركوبة وكيساً به بعض أطعمة جافة، يركب متوكلاً على الله هو محتاج للكشاف يضىء به الطريق إلى المسجد حتى لا يدوس فوق الكلاب النائمة فى الحواري الضيقة الدامسة ولا يتعثر فى الحفر والدروب المليئة بالفخاخ، ثم إن الظلام كثيراً ما يبقى يضرب السماء والطرق والزراعية بالشبورة، بل إن معظم هجمات قطاع الطرق على التجار المسافرين تتم فى مثل هذه اللحظات الساكنة الهاجعة، وهو . أبى . محتاج إلى الكشاف ليسلطه فى عينى من يداهم فى الطريق إلى أن يستعد له بالمواجهة المسلحة، لكل هذا قال أبى لنفسه بصوت سمعناه ملعون أبو الجنيه اللى يندفع فى الكشاف ده! مائة قرش ليست خسارة فيه! وهكذا فتح حصالة خاصة جعل يدخر فيها كل يوم ما تيسر من الفكة حتى اكتمل الجنيه، وها هو ذا قد استدعى عبد القادر ليعطيه الجنيه ويكلفه بشراء كشاف له مثل كشافه بالضبط بنفس الحجم.

عبد القادر مبروك لا يستطيع التلاعب بأبى لأننا جيران الحيط فى الحيط، وهو طول عمره يخشى بأس أبى ويعمل له حساباً. فى مساء الخميس التالى طرق باب المندرة ودخل قدم لأبى الكشاف فى علبة من الورق المقوى. فى الحال حضرت العائلة برمتها، جاءوا يتفرجون، لم يتنازل أى فرد منهم عن حقه فى الإمساك بالكشاف وإضاءته وإطفائه حتى صرخ فيهم عبد القادر كفاية حتخلصوا البطارية فانتزعه أبى ودسه فى دولاب الحائط خلف ظهره.. حينذاك كانت أفاعيل عبد القادر قد فضحتها روائحها وبات الناس يتداولونها كحقائق مؤكدة، لكن أبى الذى سئم من الشائعات ومن الشكاوى كان قد أصيب بإحباط شديد من فرحة ما تمت. ففى فجر ذلك اليوم بكر أبى فى النزول شاهراً الكشاف فى يده، فإذا به يكتشف أن القمر ساطع فى السماء يغمر الأرض بنوره، كنا إذا فى بداية الشهر الهجرى فيا لها من مصادفة سخيفة كل ليلة ينزل أبى

بالكشاف فلا يجد ثمرة من داع له على الإطلاق حتى داخل
مراحض المسجد يطولها القمر من فوق وتحت أبوابها القصيرة،
من شدة غيظه كان أبى يصيح - وحده أو بين أصحابه فى المندرة -
بحرقه حقيقية تفجر الضحكات فى الصدور يعنى القمر متشمّل
قوى الشهر ده طب يا أخى - يقصد القمر - حط فى عينك حصوة
ملح وجاملنى بليلة سودة أفش فيها غليلي وأتمتع بنور الكشاف اللى
دفعت فيه جنيه بحاله! ولقد جاءت الليلة السوداء بالفعل، أول ليلة
غاب فيها القمر، كانت شكاوى الناس قد كثرت وقويت بانضمام
العمدة وقيامه بإبلاغ النيابة - نيابة عن أهل بلدته - أن فى البلدة
كشافاً يتجسس على خلق الله ليفضحهم ثم يبتزهم وكان عبد
القادر قد سافر إلى بندر دسوق صباح ذلك السبت الذى كان ليلة
بلا قمر، ليلتها نزل أبى ملهوفاً قبل أن يتبدد الظلام، قفزت من
الفراش وسرت فى أعقابه. الطريق إلى المسجد فركة كعب، لكن
أبى أراد أن يستمتع بالظلام أطول مسافة ممكنة، أثر الذهاب إلى
المسجد عبر طريق داير الناحية، كأنه يريد أن يأخذ حقه كله من
ضوء الكشاف فى هذه الليلة، كان كأنه الطفل لا أنا. ثم إذا
بالفرجة الكبرى تدهمنا على رأس الطريق الفاصل بين البلدة
والفيطان: نصف دائرة من الأشباح سدت علينا الطريق، حاصرونا،
قال الضابط: أهلاً أهلاً! جيت برجليك يا حلوا! رايح تبتز مين
الساعة دى يا ترى؟! قبضوا على أبى، وعدت إلى الدار أصرخ
متخبطاً فى الظلام.

لا أدري كم من الشهور والسنوات أمضيناها فى نكد وشحططة
فى المحاكم وأقسام الشرطة كم صرفنا من رشاو، ناهيك عن العطل
ووقوف الحال، لكننى أصبحت أنزعج بل أرتعد إذا أضى النور فجأة
أو انطفأ لأى سبب من الأسباب.

حينئذ تسمع الحارة كلها صوت
 ولولتها وصب لعناتها على كل
 مفتر جعلها تشتري ربع ما تحتاجه
 من أرغفة بالفلوس التي من المقرر أن
 تشتري بها كل الأرغفة، غير مقتنعة
 بأن الرغيف أبو ربع جنيه مميز
 عن الرغيف أبو شلن.

أكل العيال

مع

التكبيرة الأخيرة فى أذان الفجر تكون جارتنا أم هبة قد صحت من نومها الخفيف الخاطف، تعبر الصالة الضيقة المزدحمة بكنبة بلدى منجدة بشلثة ومسندين، وتراييزة من الصاج من النوع الذى يطوى وينفرد لكى يذاكر عليها عيالها السبعة، وماكينة خياطة عتيقة تسترزق من ورائها بترميم وإصلاح الملابس القديمة وتقييفها نظير قروش من زبائنها - جيرانها - سكان حارة الوطاويط فى منشية ناصر. نسمع صوتها وهى تسب العيشة واللى عايشنها، فنعرف أنها دخلت إلى حوض المياه متعشمة أن يكون سرسوب الحنفية المفتوحة من صلاة المغرب قد ملأ البستلة فإذا بها لا تجد نقطة ماء واحدة تتوضأ بها لصلاة الفجر، تماماً مثلما حدث عندنا وعند كل الجيران. دقائق معدودة ونسمع صوت باب شقتها ينفتح ثم ينفلق. نتابع صوت خطواتها وهى تمشى تحت شبابيكنا، فنعرف أنها حملت البستلة على رأسها وهرولت بها إلى حنفية الصدقة قرب مزلقان منشية ناصر، وأنها تحمل بيديها جردلين كبيرين، لتعود بعد حوالى ثلث ساعة محملة بالماء المكرر، كالبهلوان تهبط على قرايفيصها لتتمكن من عبور عتبة البيت ذات السقف الواطئ حتى لا تصطدم به البستلة. عند باب شقتها تهبط مرة أخرى واضعة أحد الجردلين على الأرض لتشد بيدها المفتاح من سيالتها، تفتح الباب.. عندئذ تكون ابنتها الكبرى هبة فى انتظارها فى فتحة الباب حيث تعاونها فى إنزال البستلة إلى

الأرض ثم تحملها وتدخل بها عفشة المياه، ومن ورائها أمها حاملة الجردلين. فى الحال تشمر ذراعيها وتقع على أرض الكنيف، وهبة تغرف بالكوز من الجردل وتصب عليها حتى تتوضأ فى لمح البصر، تسحب السجادة المتاكلة الأطراف من فوق مسند الكنية، تفرداها على الأرض فى اتجاه القبلة، تقيم صلاة الصبح. على صوت قراءتها للفاتحة وقل هو الله أحد . حيث لا تحفظ من سور القرآن الكريم سواهما . يصحو زوجها الشقيان الأسطى محروس السواق.

ابنتها الكبرى هبة باسم الله ما شاء الله أصبحت عروسا ذات شخصية تصد عنها صياغ منشية ناصر، هى الآن فى دبلوم التجارة، وهى ذراعها اليمنى، تصحو قبل إخوتها لتساعد أمها، تشعل البوتاجاز النقال تضع سخان الشاى، فألى أن ينتهى أبوها من قضاء حاجته فى الكنيف مع كحة وسعال وبصاق بلغم كثيف من السيجارة التى أشعلها على الريق، تكون كوبة الشاى الخمسينية فى انتظاره على تلك التراييزة التى تتخلخل وتهتز بمجرد لمسها ولهذا فقد دربوا جميعا على اعتقالها فى اللحظة المناسبة قبل أن يتدلنق ما عليها من سوائل. فى سرعة يلبس الأسطى محروس بنطلونه وقميصه، يجلس على الكنية يشرب كوبة الشاى مع سيجارة ثانية ثم يتوكل على الله إلى بيت المعلم دياب صاحب التاكسى، يتسلم منه السيارة ويمضى إلى طريق الأوتوستراد أو إلى طريق القلعة داعيا الله أن يرزقه بإيجارها ومن فوقه رزق العيال السبعة الذين صممت أمهم على تعليمهم فى المدارس: هبة فى دبلوم تجارة، محمد فى الإعدادية، مها فى أولى إعدادى، سيد فى الابتدائية، وحسان فى القبول، ورشا وتوأما خليل فى الرابعة من عمرهما .

بعد نزوله مباشرة تنزل أم هبة فى أعقابها حاملة مخللة الكتان فى قعرها حلة صغيرة، تجرى إلى الفرن البعيد فى أعماق الجبل، تقف فى الطابور لمدة تقرب من نصف ساعة، تشتري فى المتوسط خمسين رغيفا بواقع رغيفين لكل فرد من عائلتها فى ثلاث طقات يومية، لكن الفرن لا يقبل ولا جمهور الطابور يقبل أن

يعطيها كل هذا العدد من الأرغفة، يكفيها على الأكثر عشرين رغيفا، مما يضطرها إلى إخفائها في المخلاة والتوجه إلى قرن آخر تأخذ منه ما تستطيع، ثم إلى بائع الفول والطعمية الواقف بعربته عند مزلقان منشية ناصر، تشتري بخمسة جنيهات ما يغطي قعر الحلة من الفول المدمس، وطعمية بجنيهين، وكيسا من الطرشي، حزميتين من البصل الأخضر ومثلهما من الجرجير والبقدونس، فإن فاضت في يدها فلوس . وقلما تفيض . حودت على بائع الخضراوات تشتري قليلا من حبات الطماطم أو البطاطس .

حين تصل إلى البيت يكون العيال قد استيقظوا جميعا وقامت هبة بغسل وجوههم والباسهم ملابس المدرسة ورتبت لكل واحد حقيبة كتبه وكراريسه، ثم فرشت الكليم على الأرض ووضعت فوقه الطبلية فيتحلقون حولها في انتظار أمهم التي ما إن تدخل حتى تتلقاها ابنتها هبة، تأخذ منها الأرغفة فتفردوها على الطبلية، والحلة فتفرغها في طبق عريض مفلطح وتدهك الفول بالزيت والكمون، تدلق الطرشي في الطبسية، توزع أقراص الطعمية على كل واحد قرصين تتربع أم هبة بينهم، ينزلون على الرغضان والأطباق حتتك بتتك، في ظرف خمس دقائق على الأكثر يكون الطبق قد مسح تماما كأنه غسل بمنظف كيميائي، ولم يبق من الأرغفة إلا فتافيت.. بحرص شديد تلمها أم هبة، تصرها في هدمة قديمة في بطانة من بقايا أوراق الخس والفجل لتبقى طرية إلى الغداء، فإن نشفت قليلا صعدت بها إلى الدجاج، فإن نشفت تماما ادخرتها لتفتتها في مرق من مخلفات الدجاج أو البط الذي تربيته لتبيعه لا لتأكله .

يذهب الجميع إلى مدارسهم، تبقى أم هبة وحدها مع رشا و خليل، تقوم إلى ماكينة الخياطة، تنهك في قص وترقيع ورفى وتركيب زراير وإصلاح عراو، إلى أن يفي زوجها الأسطي محروس بوعده، أن يمر عليها في وسط النهار ليترك لها فلوسا تجهز بها غداء للعيال، حيث يكون الله قد بارك في استفتاحه وتجمع في حصالته من عمولته ما يستحق أن يفوت به على البيت ما يعطيه

لها تتصرف فى حدوده بشرط أن يكون كافيا للإشباع مهما كانت الحدود على الغذاء. إنها شاطرة فى تليفيق الطبخات من اللاشئ، شوية خبيزة، طبق بصارة، شوربة عدس أصفر تفت فيه بقايا الخبز الناشف، فول نابت، بطاطس مقلية أو مسلوقة ومدهوكة بالملح، المهم إن العيال لابد أن يشبعوا، ولن يشبعوا إلا بالخبز وحده، أما مصاريف العيال فى المدارس فإنها متكلفة بنصفها على الأقل بفضل تربية الدجاج وماكينة الخياطة هذه التى اشترتها . بمكسبها من بيع البيض والدجاج . قديمة من سوق الجمعة فى الإمام الشافعى.

أزمة الخبز أرغمتها على النزول من بيتها مبكرا، ربما قبل أذان الفجر بقليل لعلها تكون أول واقف فى الطابور الذى يستطيل كل دقيقة فيتلولب ويتكور على نفسه توسيعا للطريق، والجميع فى حالة من التحفز الشرس ضد كل من يحاول سرقة دور غيره بأى لون من التلاعب، سرعان ما تلمع أنصال السكاكين والسنج والسيوف والنباييت، الملل فى طول الوقوف كفيل وحده بخنق الصدور وتضييق الخلق، فما أسرع ما يقوم القتال بين الأقوياء من البلطجية المأجورين لحساب من يبيعون الخبز على الطرقات بأضعاف ثمنه . فى غمرة احتدام القتال وتدفق الدماء تتسلل أم هبة منسلخة من كتلة المرتاعين الذين التهوا عن كل شئ وراحوا يصوتون ويجاهدون للابتعاد عن مرمى السيوف ونغز المطاوى، تقف إلى بعيد تنتظر انفضاض المعركة الدامية من تلقاء نفسها أو بمجئ البوليس، ربما استطاعت انتهاء فرصة الغاغة وبعثرة الطابور فتتسلل لتحتل مكان من كان فى المقدمة، وربما وجدت أن الوقت سيطول حتى يستأنف البيع فتهرول إلى قرن آخر فى أعماق المقطم، أو تضطر إلى الشراء من الباعة السريجة على الطرقات إذا وجدت أن الوقت أزف ولا بد من عودتها فورا إلى العيال .. حينئذ تسمع الحارة كلها صوت ولولتها وصب لعناتها على كل مفتر جعلها تشتري ربع ما تحتاجه من أرغفة بالفلوس التى من المقرر أن تشتري بها كل الأرغفة، غير مقتنعة بأن الرغيف أبو ربع جنيه مميز

عن الرغيف أبو شلن.

نسوان حارتنا يحسدون أم هبة على شطارتها، فى حين يحسد الرجال الأسطى محروس السواق على هذه المرأة الجدعة التى لولاها ما استطاع أن يعيش فى هذا البلد الذى انقلبت حكومته على شعبه فتركته يأكل نفسه بعيدا عن مخادعها الآمنة. لكن حسد النسوان فى حارة الوطاويط. لأم هبة بالذات. غير مؤذ، إذ إننا جميعا نعرف البير وغطاه، يحكمنا المثل الداير: لا تعابرني ولا أعايرك اللهم طايلى وطايلى، وكذلك: على إيه تحسدنى وأحسدك دا اللى يسعدنى يسعدك. عين الحسود ينكسر سمها بمجرد رؤيتها للولية أم هبة وهى قادمة من السوق تتصبب عرقا ولأنها طوال السكة تتادى وهى ماشية على جاراتها لتبتهن إلى أخبار مهمة: يا بنت يا هنية قولى لأملك التموين نزل الدكان. يا أم دقش طابور العيش راق شوية.. الحقى يا فكية حنفية الصدقة مفتوحة ومفرقة الأرض.

من غرائب حارتنا أن الواحدة من نسوانها بعد أن تغرز عينيها فى حمولة أم هبة مغممة من بين أسنانها آه منك يا أروبة يا أم قلب حامى!، تستدرك فى الحال بنبرة إعجاب والنبى جدعة! المعاش عايضة كده! كان الله فى عونك عندك زربة عيال! إلا أن امرأة أخرى قد تردد نفس العبارة ثم تضيف إليها فى شئ كالعتاب أو الاحتجاج بس يعنى كان ضرورى يا أم هبة تودبهم كلهم المدارس! ما تمديش رجلىكى على قد لحافك ليه؟ ولا يعنى أقرع ونزهى!؟. غير أننا فى الحارة نعرف أن من تتقول مثل هذا الكلام تشعر بالفيرة من أم هبة خاصة أن الكثيرين من رجال حارتنا يعايرون زوجاتهم بأم هبة، وفى نفس الوقت يعلقون دائما بقولهم بس هو كمان جدع ويستاهلها! ذلك أن الأسطى محروس السواق. وهو أقدم ساكن فى هذه الحارة أيام كانت منشية ناصر كلها مجرد عشش على أرض بوضع اليد. لم يكن مرحبا بخلفة العيال من الأساس، وساق على أم هبة طوب الأرض من الأهل والجيران لإقناعها بتركيب اللولب وتأجيل الخلفة حتى يعرف دخله من خرجه

إلا أنها قالت لهم حد يطول يرزقه ربنا بالعيال بس تيجى العيال وورزقها فى كعبها. إنما الأسطى محروس طول عمره حكيم، إنه من أوائل من جاعوا إلى هذه المنطقة الجبلية الصحراوية ووضعوا يدهم على قطع أرض بنوا فوقها أعشاشا، فلما تكاثر الوافدون ولم يعد أحد يستطيع وضع يده على أرض جديدة ساومه أحد التجار على القطعة المقامة فوقها عشته: أن يبنى التاجر فوقها بيتا من طابقين ويعطى لمحروس شقة فى الدور الأرضى يملكها وأن يكون له حق الانتفاع بالسطح لزوم تربية الفراخ والبط والأرانب ونشر الغسيل والقعاد فى الطراوة.

يا له من يوم لن تنساه حارتنا ولا منشية ناصر كلها: أم هبة وراءها عيال عندهم امتحانات، لابد أن يفطروا فطورا مشبعا قبل ذهابهم إلى المدرسة. نزلت من بيتها ومؤذن الفجر يهتف فى ميكروفون يزلزل رقود الموتى الصلاة خير من النوم. قالت وهى تهرول فى الحارة بصوت عال تعشمت أن يصل إلى السماء عدم المؤاخذه يا رب! العيش كمان خير من الصلاة، الصلاة ملحوق عليها لكن متأخذنيش يا رب الفرن مش ملحوق عليه. فى ذلك اليوم - كعادتى كل يوم - خرجت بعدها بقليل أشوف السبوبة: نصبة الشاى التى أقف بها جنب مدخل سوق منشية ناصر قرب المزلقان. هى ذهبت إلى الفرن، وأنا حودت على البقال أشتري المونة. حينما عدت إلى النصبة، وهى عبارة عن عربة يد أضع فى جوفها العدة وأغطيها بالمشمع وأحزمها بجنزير وقفل أشبكه فى تلك الحديد الغائصة فى الأرض حيث كان غفير المزلقان. أيام كان القطار الحربى شغالا - يشبك فيها طرف الجنزير الذى يغلق به المزلقان حتى يمنع المرور إلى أن يفوت القطار، ما كدت أشعل وابور الجاز وأرص العدة حتى لمحت أم هبة قادمة تهرول من قلب السوق، تحمل على رأسها حلة الفول، وفى يدها المخلاة متخمة بالأرغفة الساخنة، وهى يسراها مخلاة أخرى من خيوط شبكية امتلأت بالطماطم والخضراوات. كانت ترتدى جلبابا صعيديا بنقشة محتشمة، وفى قدميها شبشب زنوبة يطرقع فى كعبيها، وجسدها

الملآن المبطرخ يرتج تحت الجلباب. صبحت على.. يسعد صباحك يا أم هبة نهارنا قل بإذن الله. من وراء السوق ظهرت دبابة كبيرة مسرعة، لا أعرف اسمها، إنما هي تشبه الدبابة، عجالاتها الحديدية محاطة بسير حديدى ذى أسنان حديدية قاطعة كأسنان المحارث تغلف الأرض من ورائها صفين من الحفر كالجروح الفائرة، لعلها تابعة لإحدى شركات المقاولات، كانت تمشى على الأرض المتربة غير المرصوفة الفاصلة بين طريق الأوتوستراد ومنشية ناصر، لعلها كانت ذاهبة إلى مكان ما فى الجبل الأحمر، ولحظة أن مالت نحو جسر السكة الحديد لتعبر المزلقان، كان هناك من هو أكثر عجلة من أم هبة الملهوفة على العودة إلى عيالها بأسرع وقت ممكن لتفطّرهم قبل توجههم إلى لجان الامتحانات، هذا المتعجل داس على طرف شبشب أم هبة من الخلف دون أن يقصد طبعاً، فأنكفأت على بوزها منطرحه على الأرض فوق بطنها وقد غرق وجهها فى دم مخلوط بالفضول المدمس، فى نفس البرهة مرت الدبابة فوق ذراعها اليسرى فبترته تماماً ثم عبرت المزلقان كأن شيئاً لم يكن. الجميع صوت ولطم خديه معتقداً بأن الولية لا بد قد ماتت موتاً محققاً، وها هو ذراعها المفتتة مع الحلة المنكفأة مع الأرغفة المبعثرة وحببات الطماطم والجرجير والطرشى كل ذلك على شطآن بحيرة من الدم. لكننا فوجئنا. أى وحق جلال الله. بأم هبة. ربما من حلاوة الروح. قد استجمعت جسدها وهبت واقفة دون أن تفطن إلى أنها فقدت ذراعها مرمية على مقربة منها كبلطية ميتة، راحت بذراعها اليمنى تجمع الأرغفة وهى تصيح فى فجيعه تلفظ أنفاسها الأخيرة أكل العيال يا خرابى يا مصيبتى السوداء أكل العيال راح! ساعدونى يا خلق! أكل العيال طار! أكل الـ... عيا... وسقطت على الأرض فى غيبوبة، وذراعها الباقية تحضن ما جمعته من أرغفة.

الفهرس

الصفحة

٥	 قبل أن تقرأ
٧	 مقدمة
٩	 نفايات ذاتية
١٥	 نزف كبرياء مهيب
٢١	 مقام الضوء
٢٩	 مشوار مبهم
٣٧	 ما ليس يضمه أحد
٤٥	 فيدرا الآثمة
٥١	 فتح المندل
٥٩	 شفاء الفل
٦٧	 حدود قديمة
٧٥	 جملة موسيقية
٨١	 بكوية من سوق الكافتول
٨٩	 الغضب
٩٥	 العلاج المستحيل
١٠٣	 العفاريات التي تسكننا
١١١	 الخروج من الحارة
١١٧	 الثياب العارية
١٢٣	 البلد البعيد
١٢٣	 الاشتياق لليلة حالكة
١٤١	 أكل العيال

كتاب اليوم

نخافة اليوم وكل يوم

يعتز "كتاب اليوم" بثقة قرائه الأعزاء في أنحاء الوطن العربي، ومن أجل وصوله إليكم في ميعاده المحدد في أول كل شهر حسب قيمة الاشتراكات الموضحة في الجدول التالي:

الاشتراك السنوي

داخل مصر	٧٢ جنيه
الدول العربية	٣٣ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقي وأوروبا	٤١ دولاراً أمريكياً
أمريكا وكندا	٤٧ دولاراً أمريكياً
باقي دول العالم	٦٢ دولاراً أمريكياً

يتم السداد نقداً أو بشيك أو حوالة بريدية أهلية لأمر:

اشتراكات أخبار اليوم

٣ أ شارع الصحافة بالجلاء القاهرة
جمهورية مصر العربية

إذا وجدت أى مشكلة فى الحصول على

كتاب اليوم

إذا كان لديك أى مقترحات أو ملاحظات
فلا تتردد فى الاتصال بنا على أرقام:

٢٥٩٤٨٢٢٣ - ٢٥٧٨٤٤٤٤

أو على:

Nawal@akhbarelyom.org

- مركز البيع الرئيسى لكتاب اليوم بكل
اصداراته الحالية والسابقة.

- آخر شارع الصحافة بالمبنى الادارى الجديد قرب
الترجمان - مكتبة أخبار اليوم قطاع الثقافة.

ت: ٢٥٨٠٧٥٩١

**بطاقة
فهرسه**

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشؤون الفنية

شلبى / خيرى

ما ليس يضمئه أحد: مجموعة قصصية /

خيرى شلبى

القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٩ .

ص، سم. - (كتاب اليوم)

تدمك ٢ ١٤٢٠ ٠٨ ٩٧٧

١. القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣,٠١

رقم الايداع ١٠٧٢٦ / ٢٠٠٩

I.S.B.N.977- 08 -1420 - 2

مطابع أخبار اليوم ٦ أكتوبر

كوبون اشتراك

الاسم:

العنوان:

رقم التليفون:

مدة الاشتراك:

السداد/ نقدا شيك مصرفي

برجاء قبول اشتراكى فى كتاب اليوم.. ومرفق طيه شيك
مصرفي لأمر اشتراكات أخبار اليوم على ان يبدأ الاشتراك
اعتبارا من ٢٠٠ / /



لما يبقى جنبك تليفون أرضى ما تسيبوش ..



قروش!

**دقيقة
المحافظات
بتبندى من ٨ قروش**



بالقوة المحافظات بتبندى من ٨ قروش
ومدى ١٠ أرضاً حسب المسافة والتوقيت

لإستعلام اتصل بـ ١١١ بسعر المكالمات العادية



**المصرية للاتصالات
Telecom Egypt**

شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا

التمن 6 جنيها
طبع بمطابع أخبار اليوم



6 222007 800078